المكان في شعر يوسف العظم

دكتور

ياسر عكاشة حامد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالزقازيق

المكان في شعر يوسف العظم

دكتور
باسر عكاشة
قسم الأدب والنقد ،كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنات الزقازيق ،جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية
yasserokashah@azhar.edu.eg

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى تقديم دراسة المكان في شعر يوسف العظم ، فهو جزء مهم من الأبداع الأدبي ، فلا أدب من دون مكان ، فالمكان لوحة إنسانية تظهر وجوهًا مختلفة تنمُّ على نفسية المبدع لحظة الإبداع .

ولقد كثرت الدراسات حول المكان في الأجناس الأدبية وأردت أن أتعرف إلى شعر يوسف العظم عن المكان لما للمكان من أهمية بالغة في بناء النص الشعري .

ومن هنا كان هذا البحث **(المكان في شعر يوسف العظم)** إسهاما في إبراز النص المكانيّ الشعري عند يوسف العظم والذي وظّف المكان توظيفا فنيا بعيدا عن التوظيف الحرفي حيث أبرز مدى التواصل الشعري بين الشاعر والمكان ، وخاصة أن هذا الجانب لم يدرس من قبل في شعر العظم .

كما أن أنماط المكان عند يوسف العظم جاءت محملة بالكثير من الدلالات المنبعثة من رؤيته للمكان ، وهدفه في هذا التوظيف الفني للمكان مستعينا بالأدوات الفنية التي تبرز هذا التوظيف من خلال المعجم الشعري النابض بالحركة والصورة الفنية التي تكشف أبعاد المكان ودلالاته ، وكذا التكرار من حيث الحرف والكلمة والعبارة مما أعطى نصه المكاني بعدا موضوعيا وفنيا بالغ الأثر في نفس المتلقي .

الكلمات مفتاحية : المكان – حقيقة المكان – المقدس– الطبيعي – المدن– الوطن العربي– ملامح فنية – معجم شعري – صورة شعرية – التكرار .

The place in the poetry of Youssef Al-Azem

Yasser Okasha

Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies, Zagazig Girls, Al-Azhar University, Egypt

yasserokashah@azhar.edu.eg: E-mail

Abstract:

This research seeks to provide a study of the place in the poetry of Youssef Al-Azem, as it is an important part of literary creativity, so there is no literature without a place, because the place is a human painting that shows different faces that develop on the psyche of the creator at the moment of creativity.

And there have been many studies about the place in the literary races and I wanted to know about the poetry of Youssef Al-Azem about the place, because the place is very important in building the poetic text.

Hence this research (the place in the poetry of Youssef Al-Azem) was a contribution to highlighting the poetic spatial text at Youssef Al-Azem, who employed the place artistic employment far from literal employment where he highlighted the extent of poetic communication between the poet and the place, especially since this aspect has not been studied before in Al-Azem's poetry.

Also, the patterns of the place at Youssef Al-Azem came loaded with many indications emanating from his vision of the place, and his goal in this technical recruitment of the place, using the technical tools that highlight this employment through the poetic dictionary that thrives with movement and the artistic image that reveals the dimensions of the place and its indications, as well as repetition in terms of letter and word The phrase, which gave its spatial text a substantive and technical dimension with a great impact on the same recipient.

Key words: Location - the reality of the place - the sacred - the natural - the cities - the Arab world - artistic features - a poetic dictionary - a poetic image - repetition.

المقدمة

مما لا شك فيه أن ما يميز الشعراء عن بعضهم البعض، الجانب الفني أو الجمالي: صورة ولغة وأسلوبا وفكرة وخيالا، وهذا الجانب يتخذ أطرا معينة، وأساليب محددة، تتفاوت من شاعر إلى آخر من أجل الكشف عن أسرار النص الشعري بعد كل قراءة.

ومن وجهة نظرنا أن المكان من أهم العناصر التي تشكل جمال النص. إذ إن المكان يشكل النص عبر الجمالية المكانية حين يتجلى تعامل الشاعر مع العنصر المكاني وجوانب رؤيته له والأهداف المتوخاة من ذلك.

ولذا كان هذا البحث (**المكان في شعر يوسف العظم**) إسهاما في إبراز النص المكانيّ الشعري عند يوسف العظم والذي وظّف المكان توظيفا فنيا بعيدا عن التوظيف الحرفي، حيث أبرز مدى التواصل الشعري بين الشاعر والمكان.

وبالبحث لم أجد بحثا حول هذا الجانب في شعره إذ لم يتوفر حوله إلا بحثا حول القدس في ديوان)في رحاب الأقصى (للشاعر يوسف العظم " دراسة تحليلية"[١] للدكتور ماجد محمد النعماني، لم يتناول فيه غير القدس ولم يتناول غيره من الأماكن، وكذلك بحث بعنوان (يوسف العظم شاعرا)[٢] للباحث محمد أحمد الحمايدة، تناول الباحث فيه دراسة حياة الشاعر وموضوعاته الشعرية، ولم يتناول فيها ظاهرة المكان في شعره إلا من خلال نماذج قليلة تخدم اتجاهه لدراسة موضوعات شعر الشاعر.

ومن هنا كان اختيار هذا الموضوع لجدته وطرافته، كما أن أنماط المكان عند يوسف العظم جاءت محملة بالكثير من الدلالات المنبعثة من رؤيته للمكان، وهدفه في هذا التوظيف الفني للمكان مستعينا بالأدوات الفنية التي

---

(١) هذا البحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول يناير ٢٠١٣ .

(٢) رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة مؤتة – كلية الآداب سنة ٢٠٠٢ .

تبرز هذا التوظيف من خلال المعجم الشعري النابض بالحركة والصورة الفنية التي تكشف أبعاد المكان ودلالاته، وكذا التكرار من حيث الحرف والكلمة والعبارة مما أعطى نصه المكاني بعدا موضوعيا وفنيا بالغ الأثر في نفس المتلقي.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المكان مفهومه وحقيقته في الشعر قديما وحديثا

ولقد تناولت فيه جزئيتين:

أولا: المكان مفهومه وحقيقته.

ثانيا: المكان بين الشعر العربي القديم والحديث.

المبحث الثاني: جماليات المكان في شعر يوسف العظم

وجاء تحته مجموعة من المحاور:

١- المكان المقدس.

٢- جماليات المكان الطبيعي والمدن.

٣- جماليات المكان الوطن العربي.

المبحث الثالث: من الملامح الفنية في شعر المكان عند يوس العظم.

وتناولت فيه:

أولا: المعجم الشعري.

ثانيا: الصورة الشعرية.

ثالثا: التكرار.

ثم جاءت الخاتمة لتكشف عن الموضوع وأهم النتائج التي توصل إليها البحث، وثبت بالمرجع والمصادر.

والله أرجو التوفيق والسداد، فهو من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل إنه نعم المولى ونعم النصير.

المكان في شعر يوسف العظم[1]

(١) وُلد يوسف العظم في مدينة معان جنوب الأردن سنة ١٩٣١ من أسرة تتحدر أصولها من الشام. وعندما بلغ الخامسة من عمره أدخله والده كتَّاب البلدة عام ١٩٣٦ فدرس فيه القراءة وحفظ جزءاً يسيراً من القرآن الكريم، ودرس الابتدائية والإعدادية في معان، ثم انتقل إلى عمّان وأكمل فيها دراسته الثانوية عام ١٩٤٨، ثم سافر إلى بغداد ودرس فيها سنتين في كلية الشريعة، ثم انتقل إلى القاهرة، حيث نال شهادة الليسانس في اللغة العربية من جامعة الأزهر عام ١٩٥٣، وحصل على دبلوم عالٍ في التربية من معهد التربية للمعلمين في جامعة عين شمس عام ١٩٥٤. وعمل بعد عودته من مصر في الكلية العلمية الإسلامية في عمّان مدرساً للثقافة الإسلامية والأدب العربي من عام ١٩٥٤وحتى عام ١٩٦٢ ، عمل العظم إلى جانب مهنته في التدريس رئيساً لتحرير صحيفة "الكفاح الإسلامي" بعمّان في الفترة ١٩٥٦ – ١٩٥٨. وانتُخب عضواً في مجلس النواب الأردني عن محافظة معان لثلاث دورات: الأولى عام ١٩٦٣، والثانية عام ١٩٦٧، والثالثة عام ١٩٨٩. وكان مقرراً للجان عدة في مجلس النواب. ثم عين وزيراً للتنمية الاجتماعية عام ١٩٩٠. وله العديد من الدواوين الشعرية وهي : أناشيد وأغاريد للجيل المسلم: صدرت الطبعة الأولى في عمّان، ١٩٦٩، طبع خمس طبعات منها. رباعيات في فلسطين: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٠.في رحاب الأقصى: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٧٧.السلام الهزيل: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى١٩٧٧. عرائس الضياء: دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤. قناديل في عتمة الضحى: مكتبة المنار، الزرقاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٧..الفتية الأبابيل: دار الفرقان، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨..على خُطا حسان: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٠. قبل الرحيل: مؤسسة الإبداع للثقافة والأدب، صنعاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠١. لو أسلمت المعلقات: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

المبحث الأول

المكان مفهومه وحقيقته في الشعر قديما وحديثا

أولا: المكان مفهومه وحقيقته

المكان هو الأرض والوطن والمأوى والانتماء ومسرح الأحداث، وقد جاء في لسان العرب " والمكان: الموضع، والجمع أمكنة، وأماكن جمع الجمع، وقيل الميم في مكان في حكم الأصل كأنه من التمكن دون الكون " (١).

وجاء في المعجم الوسيط: " المكان جمع أماكن وأمكنة، وأمكن: موضع كون الشيء، والمكانة جمع مكان، الموضع والمنزلة، يقال مكين فيه: أي موجود فيه"(٢).

وهذا يعني أن المكان اسم مشتق للدلالة على موضع الحدث والخلق والوجود والاستقرار، وهذه المعاني اللغوية تحمل في طياتها احتمالات كثيرة ومضامين متعددة حول الوجود، والحياة، والكينونة.

ونظرا لاتساع دلالة المصطلح فلقد تعددت آراء الفلاسفة وغيرهم حول وضع مفهوم محدد للمكان يشمل طبيعة المكان وتشعباته، وإن كانت كلها تقرر أهمية المكان بالنسبة للوجود الإنساني، إلا إنها ابتعدت في مضمونها عن الطبيعة الفنية للمكان.

---

(٢) لسان العرب ابن منظور، ط دار صادر بيروت ، ط٢ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م مادة (م ك ن) ص٤١٤.

(٣) المعجم الوسيط ط الهيئة المصرية العامة للكتاب مادة (كون) .

فالمكان المعني بهذه الدراسة ومثيلاتها من الدراسات الأدبية لا يمكن أن يكون المكان الجغرافي المحدود بمساحات وأبعاد هندسية، وإنما يعني المكان ما يحمله من القيم الإنسانية لأنواع المكان كما يقول غاستون باشلار: " المكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تتذكرها أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة " (١).

وبذلك أصبح " المكان هو الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات " (٢)، كما أن الانجذاب إلى المكان واستنطاق دلالاته التاريخية والحضارية يعمق رؤية الشاعر، وينافح عن مشاعره وأحاسيسه الباحثة عن التكيف.

ونتيجة بدهية لسعة عملية التفاعل النصي مع المكان، وعمقها، فإن دراسته لم تعد " قاصرة على المكان الطبيعي، أو على الأركان المحدودة بحدود معينة، أو على جنس أدبي معين؛ لأن المكان اتسعت تشكيلاته الفنية والدلالية والميتافيزيقية، الممثلة في العناصر الكونية، وذلك في معظم الأجناس الأدبية. كما أن المكانية الأدبية جزء جوهري من أجزاء الصورة الأدبية " (٣)،

---

(١) جماليات المكان غاستون باشلار ترجمة غاليا هلسا ط وزارة الثقافة والإعلام – بغداد سنة ١٩٨٠م ص ٧ .

(٢) دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر: قادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة ٢٠٠١مص٢٧٩.

(١) جماليات التشكيل المكاني في ديوان "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" لأمل دنقل، دراسة نصية: مراد عبد الرحمن مبروك، علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ج ٣٤، مج ٩، ديسمبر١٩٩٩، ص٣٨٠.

إضافة إلى أن " المكان الشعري لا يعتمد على اللغة وحدها، وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع " (١).

وبهذا فإن المكان هو منطلق الشاعر ومنتهاه في تشكيل النص الشعري المعبر عن المكان، " فالعلاقة بين الشعر والمكان علاقة عميقة الجذور، متشعبة الأبعاد، ومن خلالها قد يصب الشاعر على مكان ما طابعا خاصا، فيحوله من مسكن خرب إلى طلل مثير، ومن حجر أصم إلى شاهد على لحظات مجد أو وجد، وقد تكتسب بعض الماكن شاعرية تكاد تلازمها كالقمر والبحيرة والغابة وغيرها " (٢).

فلقد أصبح للمكان مهمة شعرية من طول علاقة الشاعر بالمكان وأصبحت له أبعادا متعددة نابعة من استحضاره واقعيا وخياليا ووهميا حين يعبر عن المكان من خلال التعايش الحقيقي معه، أو يسبح في المكان في عالمه الشعري حين يستحضر المكان الحقيقي ويكشف ما فيه من ألوان وأبعاد وجمال من خلال مخيلته الشعرية، ورؤيته الجديدة للمكان، أو يخترع الشاعر مكانا يعبر عنه من خلال رؤيته الشعرية.

فالشاعر بذلك يعيد إنتاج المكان من خلال ما عرفه عنه وما استوحاه منه، فينتج المكان شعريا من جديد من خلال ما يمنحه من إنسانيته، ومن خلال

---

(٢) إضاءة النص: اعتدال عثمان، دار الحداثة، بيروت، سنة ١٩٨٨م ص٥.

(٣) في نقد الشعر " الكلمة والمجهر " د/ أحمد درويش ط دار الشروق ط١ سنة ١٩٩٦م ص ٨٤ .

التضافر والتمازج بين الواقع والخيال، فبدا حديث الشاعر عن المكان من خلال الوعي بالبعد الشعري في دلالة المكان وشعرية الحنين ورمزية الأسماء من جهة أخرى.

ثانيا: المكان بين الشعر العربي القديم والحديث

إن المكان من أهم العناصر التي تشكل جمال النص الأدبي، إذ أن المكان الجغرافي يكشف بوضوح عن تشكُّل لغة النص عبر الجمالية المكانية، حيث تبرز تعامل الشاعر مع العنصر المكاني وجوانب رؤيته له، والأهداف المرجوة من ذلك.

وإذا تتبعنا النص الشعري العربي القديم لاحظنا بجلاء أن الشاعر العربي القديم ارتبط كثيرا بالمكان الذي ولد فيه، وعاش به، وتغني به في شعره حتى وإن كان المكان بعيدا عنه جغرافيا، فهو قريب منه نفسيا وروحيا.

ولهذا يتخذ المكان أهمية كبيرة في الشعر العربي، فقد ذُكرت أماكن كثيرة كانت ذات صلة وثيقة بتجارب الشعراء وحياتهم الخاصة والعامة، فالمكان هو البيئة التي عاش فيها الشاعر العربي بكل ما تشمل من مظاهر الطبيعة المتحركة والساكنة والمظاهر الأخرى، وربما سيطر المكان على بعض الشعراء سيطرة تامة ولعل حديث الشاعر الجاهلي عنه في المقدمة الطللية يشير إلى تقلب الحياة، إذ يبرز ملامح التغير الذي أصاب المكان وما حل به بعد رحيل أهله عنه، فهو حديث عن " بقايا الأشياء، تلك البقايا التي لا تزال

تحتفظ بالماضي، وليس الشاعر إلا بقية شيء أتى عليه البعد والهجر والفراق مثلما أتى المطر والرياح والزمن على معالم المكان "[١].

فالطلل كان أحد المحاور المكانية الأساسية الداخلة ضمن تجربة الشاعر الجاهلي، وقد تحول إلى هاجس يؤطر العلاقة الإنسانية مع المكان وذلك "بفضل ما تهيأ للشاعر من استثمار للحس الانفعالي الذي سرى في القصيدة حتى أصبح مجرد ذكر الشاعر للدمن وآثار الديار يستنهض كوامن الإحساس لدى المستمع الذي لا يتعامل مع الأدبيات التي يسمعها بعيداً عما عرفه من حياة العرب، وما حفظه من أشعار القدماء في هذا المعنى، وللمكان في شعر الأطلال نصيب من فلسفة الشعراء لا تخطئه العين، لقد أودعه الشعراء رؤيتهم للأشياء ونظرتهم للجمال"[٢].

ولقد كان وعي الجاهليين بأهمية المكان دافعاً من الدوافع التي أدت إلى مخاطبتهم للطلل، وقد جاء هذا الخطاب بصورة واضحة في مقدمات قصائدهم حتى أصبحت ظاهرة خطاب الطلل ظاهرة مشتركة عند جميع الشعراء الجاهليين، حيث منحوا المكان صفات إنسانية تكشف عن عمق العلاقة القائمة

(١) شاعرية المكان جريدي سليم المنصوري ط مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر – جدة – سنة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ص٩٦ .

(١) شاعرية المكان جريدي سليم المنصوري ص ٩٦ . .

بين الإنسان والمكان، الذي أصبح جزاءً من الماضي بما كان يحمله من مباهج الحياة وتألقها[١].

واتبع الشعراء الجاهليون أساليب شعرية في إبراز صورة المكان من أهمها كثرة الأماكن وتتابعها في البيت الواحد أو الأبيات القليلة، وإن عدّد الشاعر إلا أنه قصد مكاناً واحداً، وهو " يعدد ليقول بأن الجزيرة العربية تخضع بأسرها لظروف متشابهة كما عني الشاعر الجاهلي بتحديد المكان وتأطيره حرصاً على بقائه في مواجهة الزمن، ولجأ إلى أسلوب الحوار مع المكان ومناداته وتحيته، وذلك لعمق صلته به"[٢].

فهو مظهر عام في شعرهم وطقس لا يغيب عنهم، ومثل هذا يعد ظاهرة تستحق الوقوف عندها، فقد برز المكان في الشعر الجاهلي من خلال المعلقات فقد أشار شعراء المعلقات إلى بعض الأماكن ذات العلاقة القوية بهم فكان من أهم هؤلاء الشعراء امرؤ القيس، فقد كانت طبيعة الحياة وظروفها التي عاشها امرؤ القيس مصدراً مهماً من مصادر تكرار التجربة وإعادة الحياة فيها وذلك متمثل بتجربة المكان ولهوه، فلو تابعنا استخدام المكان في القصيدة العربية، لوجدنا العديد من شعر الشعراء وحديثهم عن المكان في مقدمة القصيدة،

---

(٢) انظر جماليات الأسلوب والتلقي د/ موسى ربابعة ط مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع الأردن١٤٢١ هـ =٢٠٠٠م ص ٥٢.

(٣) المكان في الشعر الجاهلي رسالة ماجستير مخطوطة – جامعة مؤتة – عام١٩٩٧م للباحثة أمل مفرج عابد ، ص١٤٧ .

وعندما نتحدث عن نموذج رائع من العطاء الشعري الجاهلي نراقب فيه خصوصية استخدام المكان نجده في معلقة امرئ القيس[١] – من الطويل –:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

ففي هذين البيتين نجد تناول الشاعر لمجموعة من الأماكن منها:(سقط اللوى، وحومل، فتوضح، فالمقراة، الدخول).

وهذا يعني أن التجربة المكانية أساسية وجوهرية في معلقة امرئ القيس وفي مقدمات الطلل الجاهلي، فقد توحدت بعض التجارب وشكلت إطاراً للقصائد المرتبطة بالمكان والتجذر فيه.

كما أن هناك قسم آخر من الشعراء يخاطب الطلل وكأنه كائن حي يعي ويدرك، ويضفي على الديار هالات من القداسة ويحيها ويتمنى لها الحياة كقول عنترة[٢] – من الكامل –:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

(١) شرح المعلقات العشر للتبريزي شرح عبد السلام الحرتان دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ص ٧٥.

(٢) ديوان عنترة بن شداد ط دار الكتب الإسلامي – بيروت – سنة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م ص ٩١ .

فتقترن مخاطبة الطلل هنا بإيقاظ الأسى واللوعة في نفسية الشاعر، وتأتي المخاطبة بأنها إعلان للوجد والألم اللذين يسيطران على الشاعر، فإحساس الشاعر بالمكان جعله يفطن إلى قيمة هذا المكان، ومخاطبة الطلل لا تخرج عن إحساس الشاعر العميق بالمكان، لأن الطلل يصبح رمزاً للتهدم والزوال.

وهذا يعني أن الشاعر مضطر إلى أن يعيش لحظة الصراع بين ما يريد وبين الواقع الحقيقي، فهو يريد أن يظل المكان سليمًا عارمًا بالحياة، ولكن الواقع يقول غير ذلك، فالشاعر يقيم بينه وبين الطلل علاقة وثيقة، فهو يتوسل إليه لكي يتحدث ويخبره عن ارتحال القوم، فالشاعر لم يلجأ إلى ذلك إلا ليبرز أن المكان جزء لا يتجزأ من حياته ووجوده، فالطلل تجسيد لحنين الشاعر إلى الماضي بما كان يحمله هذا الماضي من مباهج الحياة، وبكاء الشاعر للطلل هو بكاء لذلك الماضي الذي أصبح امتلاكه أمرا مستحيلًا، فالشعراء كانوا يحيون الطلل بتحية أهل الجاهلية وهذا فيه رفع من شأن المكان ومنحة صفات إنسانية عميقة الدلالات والأبعاد، " فقد كان العرب يقولون في تحيتهم في الجاهلية: انعم صباحاً وانعموا صباحًا فيأتون بلفظ أنعموا من النعمة بفتح النون وهي طيب العيش والحياة ويصفونها يقولون (صباحًا) لأن الصباح أول النهار "[1].

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الألوسي ، دار الكتب العلمية – بيروت – د. ت ١٩٢/٢ .

وقد برز عامل المكان في الشعر الإسلامي والأموي عند الكثير من شعراء العصر منهم على سبيل المثال مجنون ليلى قيس بن الملوح[١] – من الطويل–:

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآني

فقلت له: أين الذين عهدتهم حواليك في خصب وطيب زمان

فقال: مضوا واستودعوني ديارهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

فنلمس الإشارة إلى المكان عند قيس بن الملوح في قوله مشيراً إلى (جبل التوباد) يروي (أسامة بن منقذ: روي أن المجنون قيس بن الملوح لما اختبل عقله، كان يخرج فيأتي الشام، فيقول: أين أرض بني عامر ؟ فيقال له: أين أنت من أرض بني عامر ؟ عليك بنجم كذا، فسر عليه، فينصرف ويسير حتى يأتي أرض بني عامر، فيقف عند جبل لهم، يقال له: (التوباد) وينشر[٢]:

أما عن المكان في الشعر العباسي فقد ظهر عند كثير من الشعراء فعلى سبيل المثال قول علي بن الجهم[٣]:

بان بقربِ الخليفةِ التُّحَفُ محلُّ صِدقٍ وروضةٌ أُنُفُ

دارٌ تحارُ العيون فيها ولا يبلغُها الواصفون إن وصفُوا

(٢) ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح ، تحقيق: عبد الستار فراج دار مصر للطباعة القاهرة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٧م ص ٢١٣ .

(١) ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح ص ٢١٣.

(٢) ديوان علي بن الجهم علي بن الجهم ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، د.ت ط٢ ص ١٤.

والروضة الأنف: هي التي لم يرعها أحد، والروضة تجسد لنا عنصر النبات في المكان.

ومما لا شك فيه أن الصفات الجديدة التي تكتسبها الطبيعة من خلال تفاعل الشاعر معها هي صفات تمنح اللغة مجالات واسعة وتجعلها مرنة، يقول علي بن الجهم في وصف بركة القصر(١):

كأنها والرياض محدقة بها عروس تجلى لخاطبها

فجمالية تشبيه المكان للبركة يظهر من خلالها تشبيه البركة وما حولها بالعروس التي بدت في أحلى مظاهرها، ويستمد التشبيه جماله من خلال المشبه المتمثل في البركة وما حولها من رياض جميلة، والمشبه به المتمثل في (العروس) المتزينة لخطابها الباهية في جمالها.

والتشخيص هو إصباغ الصفات الإنسانية على الطبيعة والجماد بعامة وقد اتضحت هذه الظاهرة في بعض نماذج وصف المكان في الشعر يقول البحتري يصف بركة المتوكل – من البسيط –:

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها في الحسن طورا وأطوارا تباهيها

فرونق الشمس أحيانا يضاحكها وريق الغيث أحيانا يباكيها(٢)

---

(٣) المرجع السابق ص ٣٢ .

(١) ديوان البحتري تحقيق :حسن الصيرفي ،ط،٣ دار المعارف – مصر– ١٣٩٨هـ – ١٩٧٧مص ٨٣ .

ويصف لنا أيضا الطغرائي جماليات المكان حين يقف أمام وادٍ كسته الخضرة وانتشرت الأزهار في أرجائه حيث " كانت له جلسة أنس وسرور عند غدير وافر المياه في ذلك المكان، يتلألأ الحصى في قاعه وينعكس على صفحتيه ضوء الشمس، فيبدو كمرآة والنسيم المنعش يبعث في النفس الأنس والانشراح" [1]، فيقول[2] – من السريع–:

عُجنا إلى الجزع الذي مدّ في أرجائه الغيم بساط الزهر
حول غدير ماؤه المنتمي إلى بنات المزن يشكو الخصر
حصباؤه درٌّ ورضراضُه سحالة المسجد حول الدُّرر
وقد كسته الريح من نسجها درعا به يلقى نبال المطر
وألبسته الشمس من ضوئها نورا به يُخطَفُ نور البصر
كأنه المرآة مجلوة على بساط أخضر قد نُثر

كما شكل المكان في الشعر الأندلسي عنصرًا لا يستهان به، ساعد على ذلك وجود الطبيعة الحالمة، وتفتق ملكات الشعراء الأندلسيين في الوصف فكان من نتيجة ذلك أن تعدد (المكان) بشكل وافر في الشعر الأندلسي، وأصبح ينافس في هذا الجانب الشعر العربي عامة في أي مرحلة من مراحله.

فتظهر جمالية المكان عند ابن مرج الكحل في قوله[3] – من الكامل –:

---

(٢) جماليات المكان في الشعر العباسي د/ حمادة تركي زعيتر ، ط مؤسسة دار الرضوان للنشر والتوزيع – الأردن ط١ سنة ٢٠٠٣م – ١٤٣٤هـ ص ٧٥ .

(٣) ديوان الطغرائي تحقيق د/ علي جواد الطاهر ، د/ يحي الجبوري ط منشورات وزارة الإعلام بغداد سنة ١٩٧٦م ص١٧٣ .

(١) نفح الطيب للمقري تحقيق : د. إحسان عباس ط دمشق : د.ت ٥/٥١ .

والـــروض بـــين مفضـــض ومُـــذهب والزهـــر بـــين مـــدرهم ومـــدنر

وكأنـــه وكـــأن خضـــرة شطـــه سـيف يسـل علـى بسـاط أخضـر

ومن جمال وصف المكان في الأندلس قول ابن مسفر المريني[1] – مـن البسيط–:

في أرض أنـــدلس تلتـــذ نعمـــاء ولا يفـــارق فيهـــا القلـــب ســـراء

وكيـــف لا يبـــهج الأبصـــار رؤيتـــها وكـــل روض بهـــا في الوشـــي صـــنعاء

أنهـــار فضـــة والمســـك تربتـــها والخـــز روضـــتها والـــدر حصـــباء

وهذا ابن حمديس يقف أمـام حديقـة جميلـة تضـمنّت أشجـارا مثمـرة سرقت أنظـاره مـن شـدّة إعجابـه بهـا، خاصـة وأنّ أغصانـها عُلّقت عليهـا تماثيـل الطيـور لا تسـتطيع أن تنهـض أو تطير لأنّـها مثبّتة، والمـاء الصافي كالفضّـة يندفع من مناقيرها محدثا صوتـا وكـأنّه تغـريدها، فيقـول[2]– من الكامل –:

وبديعـــةِ الثمـــراتِ تعبـــرُ نحوَهـــا عينَـايَ بحـرَ عجـائبٍ مسجـورا

شجـريةٍ ذهـبيةٍ نـزعتْ إلـى سحـر يؤثّـر في النهـى تأثيـرا

قـد صَوْلَجَـت أغصـنَها فكأنّمـا قنَصَـت لهـنّ من الفضـاء طيـورا

وكأنّمـا تأبـى لواقـع طيـرها أن تستقـلّ بنهضـها وتطيـرا

(٢) نفح الطيب ٢٠٩/١ .

(٣) ديوان ابن حمدىس الصقلي ط دار صادر بيروت د. ت ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ .

من كل واقعةٍ ترى منقَارها ماءً كسلسال اللجين نميرا
خُرْسٌ تعدّ من الفصَاح فإن شدّتْ جعلتْ تغرّدُ بالمياه صفيرا

وقد كان للمكان نصيب وافر في النتاج الشعري الحديث والمعاصر في مختلف الأقطار العربية، فقد برز في الكثير من المواضع[1] عند أحمد شوقي، ومن ذلك حديثه عن مدينة الجيزة بما فيها من أماكن عريقة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي في معرض حديثه عن الملك فؤاد[2] – من الوافر–:

بأرض الجيزة احتاز الغمام وحاز سماءها البدر التمام
ثنى عطفيها الهرمان تيها وقال الثالث الأدنى سلام
هلمي منف هذا تاج خوفو كقرص الشمس يعرفه النام
مشى في جيزة الفسطاط ظل كظل النيل بل به الأوام
....
وإن هو حلّ أرضاً قام فيها جدار للحضارة أو دعام
فمدرسة لحرب الجهل تبنى ومستشفى يذاد به السقام
ودار يستغاث بها فيمضي إلى الإسعاف أنجاد كرام

وفي هذه الأبيات " ربط رائع بين الماضي والحاضر، من خلال تلك الأمكنة التي لها أثرها البالغ إلى يومنا الحاضر مثل: الهرمين – وخوفو –

(١) راجع في ذلك المكان في شعر شوقي د/ حسن عطية طاحون ط الأقصى للطباعة سنة ٢٠٠٩ م.

(٢) ديوان الشوقيات ، أحمد شوقي ط المكتبة التجارية الكبرى ٥٢٨/١ ، ٥٢٩ .

ومنف – وإقامة المدارس التي تحارب الجهل والخرافات، والأوهام والوساوس، وإقامة المستشفيات التي لا يستغني عنها أي مجتمع "[١].

وهذا هو الشاعر حسن الشرفي[٢] في قصيدة "المفتاح"، وهو جبل الذكريات الذي يثير هاجس الشرفي الشعري، يقول الشاعر – من الكامل –:

جبل الأحبة فيك أيامي وملاعبي الأولى وأحلامي

(٣) المكان في شعر شوقي د/ حسن عطية طاحون ط الأقصى للطباعة سنة ٢٠٠٩ م ص ٩٠، ٩١ ..

(١) حسن عبد الله علي الشرفي شاعرُ وأديبٌ من اليمن، يعد من أهم القامات الشعرية اليمنية في القرن العشرين، تميز بغزارة إنتاجه الأدبي مع إجادة واضحة ومقدرة فذة على تطويع اللغة وامتلاكه لمخزون لا ينضب من المفردات مما مكنه من كتابة الشعر بأنواعه "العمودي والتفعيلة" ، ولد سنة ١٩٤٤ م في مدينة الشاهل بمحافظة حجة شمال شرق اليمن، وبدأ كتابة الشعر عام ١٩٥٨م في سنٍ مبكرةٍ إذ كان ما يزال طالبا بالمدرسة العلمية بالمحابشة، وقد ساعده إتمامه لحفظ القرآن الكريم ومتطلبات اللغة العربية على التخرج من المدرسة العلمية والالتحاق بدار المعلمين بالعاصمة صنعاء حتى قيام الثورة اليمنية في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م حيث تم تكليفه مع مجموعة من زملائه للتعريف بالجمهورية وأهدافها ومميزاتها في المناطق التي كانت ماتزال تحت سيطرة الملكيين. خلال السنوات السبع المضطربة التي تلت الثورة اليمنية في ١٩٦٢م اشتغل بالتدريس مع القليل من الأعمال الحرة السائدة كالمقاولات والخياطة والتطبيب واستمر حتى عام ١٩٧٠م. تقاعد عن العمل الحكومي وأسس مجلساً أدبياً ما زال يقام في منزلة حتى اليوم. وله العديد من الأعمال الشعرية التي جمعت في الأعمال الكاملة في ثمان مجلدات ، وطبعت في دار عبادي للدراسات والنشر بصنعاء .

يـا أنـت يـا "مفتـاح"مملكـتي ومـدائني ومـدار إلهـامي
يـا مصـر أنهـاري وأوديـتي ومعابـدي الأنقـى وأهرامـي
فيك استوت أغصان كادِيتي(١) وتبرجـت للشـمس أكمـامي
واديـك أروانـي وأشـبعني ومحـا بكـفِّ الجـود آلام
جبـل الأحبـة قـل لسـيدتي هـلاّ رأت بعـري وآرامـي؟
هـلا رأت قبعـي ومـدرعتي؟ هـلا رأت كلـبي وأغنـامي؟
كالظـل يتـبعني ويسـبقني فيظل من خلفي وقدامي(٢)

فهنا يتحدث الشاعر عن مجموعة من الأماكن المحببة إلى نفسه بما تحمله من ذكرياته ولهذا " تبدو حميمية التفاعل مع المكان الأليف (المفتـاح)، وهـو امتداد لذات الشاعر المتضخمة، والمرتبطة بوحي المكان الأول، فأي سـلطة أقوى على ذات الشاعر الشرفي وفكره ونفسيته -رغم تمرده- مـن سـلطة المكان!؟ وهذا ما ينتجه النص فعلياً، فجبل الأحبة (المفتاح) بالنسبة للشاعر هو الزمن كله: الماضي (أيامي، ملاعبي الأولى)، الحاضـر (مفتـاح مملكتـي، أنهاري...)، والمستقبل (أحلامي، مدار إلهامي، كالظل يتبعني)، بل إن اتكـاء

(٢) الكادي : نوع من الزهر ذو رالرائحة الطيبة .
(٣) الأعمال الكاملة لحسن الشرفي ط عبادي للدراسات والنشر-صنعاء١٤١/٤ .

الشاعر على المكان في تفاعله النصي ينتج تناصات متنوعة ومتداعية: دينية وأدبية، وتاريخسطورية " (١).

وقد استمر ظهور عامل المكان في شعر الشعراء جيلاً بعد جيل إذ " إن قصيدة لا تحسن استخدام المكان وتوظيفه لا توفق في رصد جزء من تطور الزمن في فترة حضارية معينة، إذ أن المكان يمثل في تطور القصيدة جزءا من الحدث واللحظة الشعرية المكانية " (٢).

فالعلاقة بين المكان والشاعر تمكن الباحث والمتلقي من فهم أوسع وأدق للتغيرات الاجتماعية والحضارية التي تحدث حولنا في العصر الحديث.

ويحدد فهمنا للعلاقة القائمة بين المكان والشعر الحديث من خلال ارتباطين أساسيين، الأول كون المكان مقروناً بالفعل الإنساني، والثاني يعكس المكان من بين ما يعكس خلجات ومشاعر وانفعالات الذات، وهذا التعلق يسمح لنا برصد المكان في الشعر الحديث فتتبدى لنا جمالية المكان بتقديم صورة مختلفة عن المعهود، فالعلاقة التي تحيلنا القصيدة إليها هي المركبة بين اللغة والدلالات المشيرة إلى جمالية الواقع من خلال المكان الذي يغدو نسقاً بنائياً في الشعر، وكل قراءة لهذا المكان تقترن بالخلق الفني للصورة الشعرية والارتقاء إلى الجمال المادي للأشياء.

---

(١) جماليات المكان في شعر حسن الشرفي مقال منشور بجريدة الجمهورية في ٢٠١٠/٩/٢٦م للكاتب عبد الله زيد صلاح .

(٢) عنصر المكان في شعر محمد إبراهيم أبو سنة د/ مصطفى عبد الغني ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتابة الثقافة الجديدة عدد ٣٣ – ص ١١ .

ولذا " فقد أصبح الشعر الذي يتعلق بالمكان فكراً للمجتمع يجري في وجدان الأمة جريانه على الألسنة، كما أصبح الاهتمام بالمكان من سمات بعض الشعراء حيث سيطر على قصائدهم ولوّن عالمهم الشعري، ولكن ما هي صلة المكان بالشاعر وما سر اهتمامه بالمكان ؟ إن للشاعر علاقة متجذرة مع المكان" (١).

وسوف نرى ما بلغه شاعرنا يوسف العظم من تعلق بالمكان، وإظهار أبعاده التي برزت من خلال تجاربه الشعرية، فكان واحدا من الشعراء الذين اعتنوا بأدق تفاصيل المكان، ففي شعره تتضح قيمة المكان من جانب ويبرز المكان باعتباره عنصراً أساسياً في القصيدة من جانب آخر، وهكذا تظل علاقة الشاعر بالمكان علاقة سامية رفيعة نثرها الشاعر في شعره معبرة عن تجاربه الخاصة، ورؤاه التأملية التي يمتزج فيها التأمل بالتجربة الإنسانية العميقة بالحياة والناس.

(١) المكان في شعر طاهر زمخشر رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية للباحثة سلمى بنت محمد بن عبد الله باحشوان ص ١٩ .

المبحث الثاني

جماليات المكان في شعر يوسف العظم

أولا: المكان المقدس:

لما كان المكان عنصرا فاعلا من عناصر استكناه العمل الفني واستبطانه كشفا لجمالياته ليس على مستوى الرؤية فحسب، بل أصبح على مستوى الأداة شكلا يتخذ عدة مستويات تحدد هوية النص وأبعاده.

وإذا كان المكان الأصيل الذي يعيش فيه الإنسان ويتنقل بين ربوعه يمثل في نفسه بنية خاصة يتفجر من خلالها الإبداع الأدبي شعرا ونثرا، فإن ثمة أماكن أخرى تمثل في ذاته خصوصية إبداعية وعبقرية في فكره ووجدانه بوصفه مسلما.

وهنا تبرز أمامنا صورة الأماكن المقدسة التي تصبح لساكنيها وغير ساكنيها موطنا روحيا يستوعب الزخم الروحي الذي يعلو ويربو ويفيض في النفس، فيأخذ عليها كل سبيل وفق المشاعر الفطرية السليمة.

وإذا كانت مكة مهوى أفئدة المسلمين قاطبة، فقد ألهبت خيال الشعراء والكتاب في العالم كشفا عن تجلياتها وعبقريتها مكانا، وشاعرنا واحد من الشعراء الذين تحدثوا عنها في شعرهم حين تحدث عن قدسيتها وروحانيتها، إلا أنه لم يقف أمامها واصفا ومادحا، وإنما نظر إليها من حيث القدسية لوجود بيت الله العتيق فيها، ومن حيث الإشعاع الديني والإحساس الإيماني لكل من يسكنها أو يزورها.

ففي وصف المكان المقدس (الكعبة) يقول منشدا[1] – من الرمل–:

قبلتي الكعبة ما أبهى ضياها
ملأ الإيمانُ والنورُ رُباها
وخليلُ الله قد أعْلَى بناها
في بلاد طهَّرَ الله ثراها
درة الأكوان والدنيا أراها
ما لنا من كعبةٍ يومًا سواهَا

فهو هنا يتحدث عن قدسية الكعبة وطهارة ثراها، وما تشعه من ضياء وإيمان يملأ النفس.

وقد تجلى الأثر الديني لمكة في شعر يوسف العظم حين يصف صورة الحجيج، ويذكر مناسك الحج وأعماله من التلبية والطواف والسعي ورمي الحصى والنحر، كل ذلك بروح إيمانية تتجلى في رحاب المكان المقدس مكة، فيقول[2] – من المجتث –:

أقبلت بين حجيج جاؤوك برا وبحرا
في صدر كل مُلبٍّ قد أودع الله سرا
بالبيت طافوا وصلوا وسعيهم كان ذكرا

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٨٨ .
(٢) ديوان قناديل عتمة الضحى ص ٣٢ .

رمـوا حصـاهم وعـادوا ليتبعـوا الرمـي نحـرا
والكـل يرجـو ثوابـا ويسـأل الله أجـرا
لبيـك رب البرايـا في الكـون كوخـا وقصـرا
لبيـك نـبض فـؤادي لبيـك سـرا وجهـرا

فالشاعر يرسم في هذه الأبيات صورة الطواف بالكعبة وانشـغال النـاس بذكر الله وتسبيحه، فالكل قد أتاه طائفا يرجو رحمته وغفرانه.

ومن الأماكن المقدسة التي تناولها شاعرنا المدينة المنورة، إذ تبدو عنـده قيمة المدينة المنورة مكانا حين تتجلى إشراقا ونورا بقدوم النبـي (ﷺ) حـين ازدانت سماء المدينة المنورة بالنور والأنصار شهبا يملأون الكـون شـموخا بإيمان تجسدوه من قدوم النبي (ﷺ)، فيقول في قصيدة نشيد الهجرة[1] – مـن الرمل–:

في سمـا طيبـة صـاروا شـهبا تمـلأ الكـون شموخـا وإبـا
فازدهـت بـالنور آفـاق العـلا مـذ أحـاطوا بـالنبي المجتبـى
يغمرون الأرض عطرا طيبا

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٦٨ .

وقد ذكر الشاعر العديد من الأماكن المقدسة في شعره وبخاصة الأماكن التي دارت في رحاها معارك المسلمين الخالدة كبدر وحطين وعين جالوت واليرموك وغيرها من الأماكن، فيقول[1] – من الرمل–:

ردوها دعوة الحق الصراح وابعثوا أصداءها في كل صباح
فهي رمز لإباء شامخ وهي عنوان جهاد وكفاح
في حمى بدر علت راياتها وزهت حطين في ظل صلاح
عين جالوت بها قد رفعت راية النصر على حمر الجراح
وعلى اليرموك منها فتية عانقوا الموت وهاموا بالرماح
وعلى الأردن جند ظمئوا يشربون الموت في أكرم ساح
وينادون العلي الله أكبر

ومن الأماكن المقدسة التي لاقت نصيبا وافرا في شعر يوسف العظم (القدس) حتى أطلق عليه (شاعر الأقصى)، ولقد زاوج في حديثه عن القدس بين البعد الديني والبعد الوطني والقومي، فصورة القدس في شعره جلية بارزة " إذ كان لها حضور قوي في شعره الديني والوطني والقومي، فهو الشاعر المسلم الملتزم بقضايا أمته العربية والإسلامية على حد سواء " [2].

فالمكانة الدينية للقدس ومنزلتها الرفيعة باحتضانها لأولى القبلتين وثالث الحرمين جعلتها من الاماكن التي لها موقع متميز وحضور بارز في شعر

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٩ ، ٤٠ .

(١) يوسف العظم شاعرا رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة مؤتة – كلية الآداب للباحث محمد أحمد الحمايدة سنة ٢٠٠٢ص ١٠٧ .

يوسف العظم، إذ لم يتوان عن ذكرها والدعوة إلى تحريرها لحظة لعظم مكانتها عند العرب والمسلمين.

والعظم يبدأ حديثه عن القدس برسم صورة بديعة يملؤها الإشراق والنور والإيمان حين يقول[1] – من السريع –:

يا قدس يا محراب يا منبر يا نور يا إيمان يا عنبر
أقدام من داست رحاب الهدى ووجه من في ساحها أغبر
وكف من تزرع أرضي وقد حنا عليها ساعدي الأسمر
من لوث الصخرة تلك التي كانت بمسرى أحمد تفخر
وأمطر القدس بأحقاده فأحرق اليابس والأخضر

فالقدس عند الشاعر ليست مجرد مدينة وإنما هي المدينة التي تحتضن الأقصى الذي يمثل مكانا مقدسا ورمزا لعقيدة يجب ان ندافع عنه ونحميه بكل ما نملك، ولذا يقول الشاعر فيه[2] – من الرمل المجزوء–:

إنما الأقصى عقيدة ووسام وقصيده
وهو صرح أبت العلياء إلا أن نشيده
بارك الله حواليه بآيات مجيده
وهو أرض النور فيه المصطفى أرسى سجوده
وهو رمز للمعالي زيّن التاريخ جيده
عمر يطرق أبواب العلا يرعى جنوده

(٢) العمال الشعرية الكاملة ص ١٥ .
(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥٨

وحسام من صرح الدين بجنّاح قيوده
فارس الحلبة يعلي في حمى الله بنوده
إنما الأقصى عقيدة فاقدوا تلك العقيدة

فالشاعر يرسم صورة مشرقة للأقصى حين تجتمع فيه كل المشاعر والأحاسيس فهو العقيدة والوسام والقصيدة، فقد اكتملت فيه صفات الصفاء والنور والنشيد، ولذا وجبت علينا حمايته والتضحية من أجله.

ويبين الشاعر مكانة القدس في كل الأديان السماوية فقد باركها الإنجيل كما باركها القرآن، فهي أرض العلا والمجد التي ابت الذل وحطمت قيوده، وكانت شامخة مرفوعة الرأس على مر الزمان تزهو بمكانتها التي تستحقها دائما، فيقول في قصيدة الفتية الأبابيل [1]– من البسيط– :

والقدسُ أرضُ العلى والمجد مذ عُرفت ... يبارك القدسَ قرآنٌ وإنجيل
راحت تُحطّمُ أرضَ الذلّ شامخةً ... لا ترضى لأن يُذِلَّ القدسَ تدويلُ

وهذه المكانة الدينية للقدس التي حظيت بها على مر الأزمان جعلت الشاعر يعقد رباطا مقدسا بين ماء القدس الرقراق وماء زمزم الطاهر، وإنه لرباط مقدس أجاد حبكه شاعرنا لما للقدس من مكانة وقدسية في نفوس المسلمين، فيقول[2] – من السريع –:

يا قدس يا أنشودة في فمي ... ويا منارا في ذرا الأنجُمِ

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

في كـــلِ أُفـــقٍ منـــكِ تســـبيحةٌ وكلـــ شـــيرِ دفقـــةٌ مـــن دمِ
وكـــلُّ روضـــةٍ نفخـــةٌ مـــن شـــذَى ومـــاؤُكِ الرقـــراقُ مـــن زمـــزمِ

ويستمر الشاعر في الحديث عن مكانة القدس الدينية حين أنزل الله فيهـا قرآنا كان محل فخر وشرف للإنس والجن، مبينا بقائه على العهد في الحفـاظ عليها وتحريرها، وهو عهد وميثاق لك مـن أحـب القـدس وأدرك فضـلها ومكانتها وقدسيتها فيقول[1] – من البسيط–:

قـد أنـزل الله فيهـا آيـة شـرفت بهـا الخلائـق مـن إنـس ومـن جـان
قولـوا لمـن ظـن أنـا لـن نعـود لهـا قـد خـاب ظنـك وسواسـا لشـيطان
إنـا علـى العهـد عاشـت في ضـمائرنا القـدس يـا إخـوتي روحـي وريحـاني
يـا أُخـتَ يافـا غـدًا نَلْقَـى أَحِبَّتَنـا ويُجمَـعُ الشَّـمْلُ في حِيفـا وبيسَـان

ويوالي الشاعر فيوضاته الشعرية عن مكانة القدس في نفسه حين قصـر حديثه وقصيده عليها، فهي التي تعلي شأن الإسلام والمسلمين، وتتحدى الكفر وترفع راية التوحيد، فيقول[2] – من الخفيف –:

إنَّ للقـــدس خـــافقي ووريـــدي وحيـــاتي ومهجـــتي ووجـــودي
وعلـى القُـدسِ قـدْ قصَـرتُ حـديثي وقـوافي شـعري وبيـت قصـيدي
في رُبَاهـــا للهِ ســـارتْ جُنـــودٌ تَسْـتَحثُّ الخُطـا بِعـزْمٍ شـديد

(٣) الأعمال الكاملة ص ١٢٥ .
(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٤ .

وحـــديثُ الإســـراء في كـــلِ وادٍ وعلـــى كـــلِ ربْـــوَةٍ وصـــعيدِ
يتحَـــدَّى الكُفْـــرَ الصُّـــراح ويعلـــي في ذرى القـــدسِ رايـــة التوحيـــدِ
وصَـــهيلُ الخُيـــولِ في حلْبـــةِ النصـــرِ وتكـــبيرة الحُمـــــاة الصِّـــيد
وصـــلاة الفـــاروق عنـــوان عـــدل تتســـامى عـــن كـــل معنـــى حقـــود
يصـــنعُ الحـــبَّ والسَّـــلام ويُعلـــي قـــربَ ديـــر الرهبـــان ركن السجودِ
لهـــفَ نفســـي علـــى عـــرينٍ تَهَـــاوى فيـــه تحيـــا حُثالـــةٌ مـــن قـــرود
وأنـــين الأقصَـــى الجَـــريح يُنـــادي واصـــلاحي وارايـــتي واجنـــودي

والمسجد من الأماكن المقدسة التي أشار إليها الشاعر حين يقول[1]ــ من الخفيف-:

وإذا المســـجد الجـــريح دعـــاني قلـــت لبيـــك يـــا نـــداء الســـماء
قـــد رويـــت الثـــرى بـــأزكى دمـــائي أنـــا يـــا إخـــوتي شـــهيد فـــدائي

فالشاعر هنا ينظر إلى قدسية المسجد الذي دنسته أقدام اليهود، فحين يئن هذا المسجد (المكان المقدس) مناديا أبناء الإسلام يهب الشاعر في جمالية مفرطة ليكون فداء لهذا المسجد، فهو لم يقف امام المسجد واصفا، وإنما وقف ملبيا نداء السماء ليدافع عن ذلك المكان المقدس، فكانت دماؤه فداء له.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٢٦ .

ثم يبين مكانة وقدسية مسجد الخيف[١] الذي كان من أوائل المساجد التي تليت فيه آيات القرآن الكريم حيث كان مصلي للنبي (ﷺ)، وانطلاقة الحجاج لرمي الجمرات،فيقول[٢] – من البسيط–:

يا مسجدَ الخَيْفِ في أفيائكَ انطلقتْ ترتيلةُ الحقِّ من آياتِ قرآنِ
وفي حماكَ رسولُ اللهِ هامتُهُ غرَّاءُ كالصبحِ لا تعْنُو لطُغيانِ
في كلِّ حبَّةِ رملٍ منكَ مأثرةٌ وكلِّ نسمةِ حبٍّ منكَ تلقاني
كئيبةُ اللهِ قد حطتْ بساحتِه تسمو بسلمانَ أو تزهو بعثمانِ

والشاعر يستلهم الماضي ممثلا في مسجد الخَيْف ويربط بينه وبين الحاضر، حين يناجي مسجد الخيف بقدسيته وطهارته الذي حرك مشاعر الحزن والأسى وحرك أشجانه ليأسى على حال المسجد الأقصى الذي دنسته أقدام اليهود، ويكشف عن رايات الحق التي تهفو نفوسهم لتطهير المسجد الأقصى، ومسح العار من ساحاته، فيقول [٣] في القصيدة نفسها:

---

(١) مسجد الخيف أحد مساجد مكة المكرمة، ويقرأ بفتح الخاء وسكون الياء، وسمي الخيف نسبة إلى ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، وهو يقع في خيف بني كنانة في سفح جبل منى الجنوبي بالقرب من الجمرة الصغرى وتوجد فيه بصفة دائمة أعداد كبيرة من الحجاج في موسم الحج ، ومن فضل المسجد فقد روى البيهقي عن ابن عباس أنه قال : صلى في مسجد الخيف سبعون نبيا .

ينظر دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة: مسجد الخيف –مسجد البيعة بمنى، ناصر عبدالله البركاتي؛ محمد نيسان سليمان مناع، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٦٠ .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٦٠ .

يا مسجد الخَيْف في الأقصى أحبتنا وفي الخليل وفي حيفا وبيسان
تهفو قلوبهم للزحف منطلقا يحرر القدسَ من ظلم وعدوان
ورايةُ الحق تعلو في مرابعنا تطهِر القدس من رجس وأوثان
وتمسح العار من ساحات مسجدها وتغرس المجدَ فيها بالدمِ القاني
لقد أثرتَ دموعَ الشَوقِ والهفي يا مسجد الخَيْفِ قد حرّكتَ أشجاني

ثم يعقد الشاعر مرة أخرى مقارنة بين ماضٍ مشرق وحاضر أليم، فيرسم صورة أليمة حزينة للمسجد الأقصى فيقول[1] – من البسيط–:

في ساحة المسجد المحزون حدثني شيخ على وجهه الأيام ترتسم
لمن أبث شكاتي والشفاه غدت خرساء ليس لها في الحادثات فم؟
لقد جرعنا كؤوس الذل مترعةً والقدس في العار، والمحراب والحرم
والصخرة اليوم باتت غير شامخة لأن نجمة صهيون لها علم
بالأمس كنت أرى زيتا نباركه واليوم ينزف من جرحي الأليم دم

ويعلن الشاعر موقفه تجاه ذلك المكان المقدس الذي لا يمكن أن يعود إلى سابق عهده من الطهارة والوضاءة إلا بتطهيره من دنس اليهود، فذلك هو السبيل الوحيد، فيقول [2] – من الخفيف–:

أيها المسجد الجريح سلام لك عهد على المدى لن نخونه
إن علت راية الرسول ودوت دعوة الله وهي فينا سجية

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٢ .
(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢٩ .

أن تسيل الدماء حتى تروي صخرة القدس والقباب الحزينة

فيرى الشاعر في هذه الأبيات أن الطريق لتحرير المسجد الأقصى وتطهيره من دنس اليهود هو اتباع المنهج الذي خطَّه الرسول ﷺ)) من بذل الدماء رخيصة في سبيل هذا التحرير والتطهير لهذا المكان المقدس.

ولقد ربط الشاعر بين المكانة الدينية المقدسة للأقصي وبين الهم الوطني فهو غير بعيد، مشيرا إلى أن حب الأوطان لا يتعارض مع قدسية المكان وعقيدته بل هو تأكيد لها، فنراه يتغني بالقدس مؤكدا الثبات على العهد لتحريرها فيقول[1] – من البسيط–:

عهدًا مع الله في الأقصَى نُبايعُه من خَانَ موعدَنا في القدْسِ فهو شقي
والمجد تَصنعُه في الساح ملحمةٌ ونفتدِيه من الطُّوفان والغَرقِ
ولا تصان بمالِ الكونِ جَبهتُهُ وإنَّما بدمٍ في السَّاحِ مُنْبثقِ
إني أهيم بحُبِّ القدسِ والهفي ليسَ التَّنكُّرُ من طبعي ومن خُلُقي

كما يربط الشاعر في حديثه عن القدس مكانا بينها وبين الحكايات البطولية على أسوار القدس وفي مختلف نواحيها لما يرى فيها من إثراء لمكانة القدس في التاريخ والوجدان العربي والإسلامي، فيقول[2] – من الرمل–:

فوقَ سُورِ القدسِ عندَ الحرم ربضَ الإخوةُ أحرارُ الدَّمِ

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢١٩ .
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص.٩٩ .

في فـــم الواحـــد منَّـــا لهـــبٌ مـــن ســـعيرِ الثَّـــورةِ المضـــطرمِ
قصـــةٌ قـــد ســـطرت مـــن دمنـــا وحكايـــا الظُّلـــمِ والثـــأر الظّلمـــي
فمتـــى نـــروي حكايانـــا متـــى؟ ومتـــى ينطـــق للـــدنيا فمـــي؟

ولا نبالغ إذا قلنا أن يوسف العظم قد أعطانا صورة متكاملـــة عـــن هـــذا المكان المقدس، وقد تدرج في رسم صورة هذا المكان حين أبرز لنا جماليات المكان وأثره في نفوس المسلمين، ثم أبرز صورة المكان الكئيبة حين وقع في يد اليهود، ثم كانت الدعوة لخلاصه لقيمته وقدسيته.

٢- جماليات المكان الطبيعي والمدن:

لقد امتاز المكان في شعر يوسف العظم بالعديد من العناصـــر والطاقـــات الإيحائية والرمزية، وهي طيعة عليه كشاعر مبدع، فتأتي الأماكن في شـــعره بما فيها من جماليات ورموز في النص الشعري لتل على قدرة الشاعر علـــى الخلق والتركيب لإبراز العلاقات الخفية بين ظـــواهر الأشـــياء ومكنوناتهـــا وتشعباتها.

ولذا وجدنا ظهور المكان في شعر يوسف العظم على اختلاف انواعها ما بين مكان مقدس يكشف فيع عن قدسية المكان وروحانيته، والمكان الذي يمثل الطبيعة بكل ألوانها من انهار وأشجار وورود، وكذا وصف المدن وما فيها من الوان جمالية وذكريات تحرك مشاعره ووجدانه، فيرسل لها التحايا النابعة من نفسه، ولا يتوقف حديث الشاعر عن المكان على وصف جمالياته بل يصـــل إلى تحديد أبعاده وعلاقته به وبغيره.

ولقد حظيت الأماكن الطبيعية باهتمام الشاعر يوسف العظم اهتماما كبيرا، حيث توزعت اهتماماته بالأماكن الطبيعية على مظاهر جمالها حين أمدته بالعديد من الصور الجمالية التي تبرز جمال هذه الأماكن وأثرها في نفس الشاعر.

فحين يقف شاعرنا أمام الطبيعة العربية من تطور ونماء " فاستوقفته كثبان الرمل الذهبية التي اكتست بالعشب والورود، وتراقصت عليها الطيور مترنمة جذلاء، ولا أجمل من صورة الماء الرقراق الذي تراقص في الأحواض، وتنافست الورود والشيح بعطرها الذي فاح يملأ الأرض وقد ازدهت حسنا، وتبدلت جمالا بعدما كانت بلاقع قفراء "[1]، فيقول[2] – من البسيط–:

ماذا أصاب كثيب الرَّمل واعجبا ... يختالُ بين الرَّوابي يكتسي عُشبا

مُذْ صار رابيةً يكسو جوانبها ... وردٌ تغنى بها طيرُ الفلا طَرَبا

وأورقَ الرملُ في صحراءَ قاحلةٍ ... فكيف أضحتْ رمال البيد خُضْرَ ربى

في كلِّ حبةِ رملٍ زهرةٌ عبَقَت ... وكلِّ ساقيةٍ ماءٌ بها عَذُبا

تراقصَ الماءُ في الأحواضِ مُنْبجسا ... وكان من قبلُ في بطْحائنا قُلُبا

ونافسَ الشيحَ وردٌ في براعِمِه ... يفُوحُ بالعطر سبحانَ الذي وَهَبا

قد بدّلَ اللهُ وجه الأرضِ فازدهرت ... وغيَّرَ اللهُ البيدَ فانقلبا

(١) يوسف العظم شاعرا رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب جامعة مؤتة للباحث محمد أحمد الحمايدة سنة ٢٠٠٢م ص ١٢٩ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٤٩ .

ويتغنى العظم بالطبيعة الخلاّبة لبعض الأماكن والمدن ذات الأبعاد الجمالية في فلسطين مثل (المثلث = والجليل – صفد – الناصرة – حيفا = يافا – عكا) بما يحمله وصف المكان الجميل من تسامي النفس الإنسانية عند الشاعر، فيقف امام جمالية هذه الأماكن وما تزهو به من كروم وجداول ونسائم عليلة تداعب أشجارها الجميلة، وشطآنها الذهبية وغدرانها وحقولها، فيقول:

حيوا المثلث والجليل والرمح والسيف الصقيل

إلى أن يقول [1] – من مجزوء الكامل –:

والتين والزيتون والـ رمان أو عنب الخليل
والبحر يهدر غاضبا والسفح والوادي الظليل
والشاطئ الذهبي والـ غدران والحقل الجميل
والغاب يزهو وارفا في ظله طاب المقيل

والجدول الرقراق يا للجدول الرقراق مثل السلسبيل[2]

والنسمة العذراء والـ إعصار يعصف بالعميل

(١) المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٢) في هذا البيت خطأ عروضي حيث جاءت القصيدة على وزن الكامل المجزوء وجاءت عروضه صحيحة والضرب مذيل (متفاعلان) إلا أن هذا البيت قد خرج على هذه الصورة فجاءت فيه تفعيلة زائدة مما احدث خللا في إيقاع البيت .

ويستمر شاعرنا في الوقوف أمام المكان الطبيعي مرة أخرى حين يصف طبيعة مدينة الخليل الخلابة ورباها الجميلة التي استحوذت علـــى اهتمامـــه، فيقول[1]:

قـد عشـقناك يـا خليـل جبـالا وكرومـا وجـدولا وسلسـبيلا

لا تلومـوا إن عشـت أهـوى رباهـا وسماهـا فقـد عشـقت الخليلا

ويقف يوسف العظم أمام جبال نابلس في فلســطين بروابيهـــا وخمائلهـــا ومياهها العذبة ليصل بوصفه جماليات المكان إلى أدق تفاصيل جماله رابطـــا بين ذلك كله ببيارق الهدى الراسية حين يقول[2] – من البسيط–:

جبال نابلسٍ أرسى الهدي فيها بيـارق النصـر تزهـو في روابيهـا

قد غرد الطير حرا في خميلتها وصـفق المـاءُ عـذبا في سـواقيها

وقد أطلَّت علينا وهي شامخةٌ مذ أعطيت في حماها القوس باريها

الله أكـبر تعلـو مـن مآذنهـا وصـيحةُ الحـقِّ تسـري في مغانيهـا

ولقد تغني الشاعر بالعديد من المدن العربية، ونلمح تأثره بالمكان العربي بشكل كبير حين ننظر في دواوينه الشعرية، فنجده يطالعنا بالحديث عن ربـــا بلاده وما تحمله من الحب والإيمان والأمل، فهذه الربى لا تنبت الزرع فقـــط

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢٠٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٠ .

وإنما تنبت الفرسان بلا عدد فينسكبوا كالغيث في وجه الأعداء في كل منحدر، فيقول[1] – من البسيط–:

على رباك بلادي قد زكا الأجل وأينع الحب والإيمان والأمل
وأنبت الحق فرسان بلا عدد كالغيث منسكبا في الملتقى نزلوا
وضل جيش العدا في كل منحدر وخر في الساح من هول اللقا هبل
وصفق المجد والتاريخ في طرب وساحة المجد والتاريخ تشتعل
لتحرق الظلم بالنار التي اندلعت وتهدي الناس بالنور الذي حملوا

ثم ينتقل للحديث عن مدينة " معان " مسقط رأسه وموطن طفولته ومرتع شبابه، فيقول عنها[2] – من الوافر–:

"معاني" إن بحثت عن المعاني لقيتَ به المروءة والتفاني
بفتح الميم تُنطقُ لا بضمٍّ وتعني منزلا بالخيردان
له باب يرقب كل حين بمن قدموا ويفتح في ثوان
ويلقَى الضيف في بشرٍ وتضفي على الملهوف ثوبا من أمان

فهو يصف فيها المعاني النبيلة التي عرفت بها من استقبالها لكل قادم في سرعة وتلهف، فهي الباب المفتوح دائما لكل قاصد لها، وفي إكرامها لكل ضيف حين تستقبله في فرح وبشر، كما أنها أمان لكل ملهوف، فلم يقف

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٤٢٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٤٧ .

شاعرنا عند الوصف الخارجي لهذا المكان وإنما صب اهتمامه إلى الجماليات الخلقية والنفسية التي اتسمت بها هذه المدينة وأهلها.

ثم يعود ويؤكد هذه الصفات النبيلة فيها حين يصفها بأنها مدينة العز والبر والمروءة والأمجاد فيقول(١) – من الوافر –:

معـــان العـــز بـــيتي في حماهـــا وأهلـــي وأهلـــها أســـد العـــرين

وإن ناديتـــــهم للـــــبر يومـــــا فهـــم اهـــل المـــروءة كـــل حـــين

هـــم الأمجـــاد إن رفعـــوا لواهـــا وهـــم في الصـــالحات رمـــوز ديـــن

وهـــو في المكرمـــات إذا تنـــادوا أنـــارَ قلـــوبهم نـــور الـــيقين

فالمكان هنا لا يعدو أن يكون لوحة من اللوحات التي تتميـز بالوصـف الشعري الذي يبرز جمالها، كما لا يعدو أن يكون وعـاء يحتضـن تجـارب الإنسان وأفعاله وصفاته التي عرف بها.

وفي معان يقول أيضا(٢) – من الرمل–:

يـا معـان المجـد يـا أغـرودة في فـم الـدنيا علـى مـر الـزمن

أنـت تـاجٌ للعـلا نعشـقُهُ رغـم مـا نلقـاه مـن سـود المحـن

أبلغـوا الظـالم أنـا عصـبة قطَعـتْ عَهْـدًا بـأن تحمـي الـوطن

أبلغـــوه أننـــا لا نـــنحني لرمـــوز الظلـــم لـــو قُـــصَّ الكَفَـــن

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٩ .

ويواصل الشاعر حديثه عن المدن العربية مبرزا جمالها سواء كان هذا الجمال متصلا بطبيعتها أو بشيمها وأخلاقها وصفاتها المعنوية، فيرسل إلى عمان التحايا العطرة مبرزا روابط الأخوة التي تربطه بهذا المكان وأهله الذين يتصفون بجميل الصفات فيقول[1] – من الطويل–:

وفي أرض عمان الأبية إخوة ... لكم يا أباة الضيم صيد أكارم
يحبونكم في الله والحق والهدى ... وحبٌّ لغير الله والحق آثم
يوحدنا القرآن إن فرق النوى ... ويجمعنا في البر والجود هاشم

ويصف الشاعر المدن الإماراتية وصفا دقيقا متغنيا بجمال أماكنها ومفاتنها حين " بدت أشجار النخيل تطرز أطرافها بظلها الوارف، وخيرها المعطاء، وتمازجت صورة جمال ومفاتن هذه المدن بصورة أبنائها البهية، فكلهم ودّ وحنان وشمائل طيبة، وجمع العظم في حديثه عن المدن بين الصور المكانية الجامدة والصور الإنسانية النابضة بالحياة "[2]، حيث يقول[3] – من البسيط–:

وراعني من "أبي ظبي" مفاتنه ... ولو لمحتُ على شُطآنِهِ ذهبا
"والعين" ترنو لنا ودًّا وتكْرُمَةً ... وقد بدا النخل في أطرافها هُدُبا
يحنو علينا ظلالا وهي وارفةٌ ... ويُغدقُ الخيرَ من أفنانه رُطَبا
وفي "دُبي" لقينا صحبةً طَهُرتْ ... للبر صرحٌ على شطآنها انتصبا

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٥٥ .
(٢) يوسف العظم شاعرا ص ٢٩ .
(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

وقد زهت أفقا بالنور "شارقة" بها شباب لنيل العزِ قد وثبا

وفي "الفجيرة" مَنْ رقَّت شمائلهم يصافحون على بر شباب دبا

"ورأس خيمة" لا عدمتُ بها صحبًا فؤادي فداهُم مكنوا الطُّنبا

"عجمان" إن عجمت عيدانها وجَدَتْ فيهم سيوف الهُدى عند اللقا قضبا

"أم القوين" حنَت أمًّا على فئة من الشباب تساموا في الهدى نسبا

وأشد ما تكون العلاقة بين الشاعر والمكان في غربته خارج حدود الوطن، وغيرها من العلاقات التي بدت في شعره، إذ ليست علاقة الشاعر مع المكان مرتبة ترتيباً منطقياً زمنياً تصاعدياً ولكنها جاءت شبيهة بالأمواج المتتالية، ومع ذلك فقد كان لكل منها خصوصية ضمن المكان.

فنجده يقف أمام (بحيرة لوجانو) في جنوب إيطاليا فيصف منظرها الخلاب حيث " المياه تعانق الزورق المنساب في جذل، والزورق يبدو جذلا، والوان امواجها ذات سحر جذاب، وصورة الشمس فيها كالتبر المذاب، والجبل وسطها يلفه شعاع الشمس كالأردان " [1]، فيقول[2] – من البسيط–:

لقد سجت في سكون الفجر "لوجانو" وازَّينت في ربيع الكون شطآن

تعانق الزورق المنساب في جذل مياهها وهو فوق الماء جذلان

بحيرة ليس للأمواج مضطرب في شاطئيها وفيها السحر ألوان

فالشمس تبر مذاب فوق جبهتها والنور في جيدها در وعقيان

(١) يوسف العظم شاعرا ص ١٣١ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٨٦ .

وشـــامخ الـــراس يجثـــو في عباءتـــه تلفـــه مـــن شـــعاع الشـــمس أردان

كأنمـــا القمـــة الشـــمَّاء فاتنـــة بـــالورد تزهـــو وبالأغصـــان تـــزدان

خميلـــة يعشـــق الولهـــان جيرتهـــا ويصـــدح الطـــير فيهـــا وهـــو هيمـــان

والنـــاس حـــولي أنمـــاط وأمزجـــة يحـيط بـي مـن بـني الإفـرنج طليـان

ويقف شاعرنا أمام بحيرة "أورليانس" بالولايات المتحدة الأمريكية واصفا جمالها وروعتها، وفيها يمزج الشاعر بين جمال المكان ووصف حياته كواحد من المغتربين الذين ازدهت قلوبهم بالإيمان فراحوا يصفون الطبيعة الخلابـــة الزاهية،فيقفون أمامها وقفة تأملية لبديع صنع الله، فالزهر يعلوه الندى والطير تواثب على الرياض والماء ينساب من المزن، وفي ذلـــك يقـــول[1] – مـــن البسيط–:

ســـجت بحـــيرة "أورليـــان" في دعـــة وقـد أقـيم علـى شـطآنها سـكني

أودع الليـــل والأكـــوان خاشـــعة ويمسـح الفجـر أجفـاني فيـوقظني

في عصـبة مـن جنـود الحـق صـادقة وفتيـة مـن بـني الإيمـان تكـرمني

أحـــاط بـــي منـــهم بـــر ومرحمـــة وحـف بي منهم رهـط ليحرسـني

قمنـــا نســـبح الله الـــذي ســـجدت لـــه العـــوالم في ســـر وفي علـــن

ومن هنا يتضح أن المكان له اتصال حميم بالطبيعية فقد يكون المكان نهراً أو وادياً أو شِعْباً أو مدينة أو غير ذلك، فيظهر المكان معبـــراً عـــن نفســـية الشاعر، ومنسجماً مع رؤيته للكون والحياة، وحاملاً بعـــض الأفكار، حيـــث

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٥٦ .

تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة تبادلية يؤثر كليهما في الآخر، فيبدو الوصف هنا الوسيلة الأساسية في تصوير المكان، وهو " محاولة يتجسد من خلالها المكان في لوحة مصنوعة من الكلمات، فالشاعر عندما يصف لا يصف واقعاً مجرداً، ولكنه واقع مشكل تشكيلاً فنياً، فالوصف للمكان هو وصف لوحة مرسومة، أكثر من وصف واقع موضوعي"(١).

٣- جماليات المكان الوطن العربي

لقد برز في شعر يوسف العظم اهتمام كبير بالمكان العربي، إذ نراه يجسد من خلال علاقته بالمكان العربي الهم العربي، وصراعه مع القوى الاستعمارية، فمثلما حمل المكان دلالة الإعجاب بجمالياته إلى جانب معاني الوفاء ونحوه من المثل العليا، نلمس تشبث الشاعر بوجوده المكاني الذي أخذ يبدو في شعره حين أصيبت البلدان والأمكنة العربية بحملات الاستعمار المتوالية، فأخذ شاعرنا على عاتقه الربط بين علاقته بالمكان والدعوة إلى التضحية والفداء من أجل هذه الأماكن والبلدان التي تجسد علاقة المكان بتفكر الإنسان في الكون والحياة، فيرى في خرابها بداية اقتلاع جذوره، والشعر من هذه الجهة له بعد فكري ممتد في نظرية البقاء والفناء، فكان الحفاظ على البلدان والأماكن حفاظ على الوجود الإنساني في الكون والحياة.

---

(١) انظر: أحمد زياد محبك، مقالة جماليات المكان في الرواية ، مجلة الفيصل ، العدد ٢٨٦، (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، ٥٦- ٥٧.

ومن هنا نراه يحدثنا عن الجزائر رمز النضال والتضحية، ويدعو الشعوب العربية للسير على دربها، فيقول[1] – من البسيط –:

جزائر المجد لا تنسى رموز هدى وألفُ ألفِ دماهم للعلا نذروا
دعاهم الوطن الغالي فما وهنوا ولا استكانوا ولا ذلوا ولا اندحروا

حتى يقول في القصيدة نفسها:

جزائر العز أنت العز فانطلقي لتسحقي من بدين الله قد سخروا
وأشعلي النار من وهران يوقدها سُمر الزنود لساح المجد قد نفروا
لك التحية من عمَّان شامخة ترنو إليك بثوب العزِّ تأتزر

ويبرز معجمه القوي القاصف في حديثه عن العراق حين يقول[2] – من الخفيف–:

ردد اللحن عبقري النشيد واصنع الفجر من رمال البيد
واجمع الأمة التي مزقوها بسيوف الظلال والتشريد
واهزم الجمع يحشده الكفر وقاتل بكل عزم شديد
وارجم الخصم بالقذائف حتى يصبح الخصم مثل حب الحصيد
فلاح الإيمان أمضى من النفط واقوى من قاذفات الحديد

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٠٤ .
(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٠٦ .

فجاءت الألفاظ (مزقوها – سيوف – التشريد اهزم الجمع – قاتل – ارجم – القذائف – الحصيد – قاذفات الحديد) موحية بالقوة والعوة لمحاربة العدو والصمود أمامه.

ثم ينتقل إلى العراق متحدثا عن بطولاتها وتضحياتها ويربط حاضرها بماضيها، ويدعو إلى تجديد عهد الخليفة هارون الرشيد، فيقول[1]:

لك قلبي "بغداد" رفقا بقلبي وبك اشتد ساعدي ووريدي
كنت للحق مشعلا ومنارا وبك ازدان منطقي وقصيدي
جددي العهد فالحياة جهاد وأعيدي بغداد عهد الرشيد

ويبدو التفاؤل في حديثه عن العراق الذي يتمنى أن تكون نقطة انطلاق في إشعال الثورات في وجه الأعداء، فيقول في القصيدة نفسها:

لاحَ برقٌ من العراق فدوَّتْ في ربى القدسِ قاصفاتُ الرعود
إيه شعب "العراق" أنت المُرجَّى بعد دهر من الليالي السود
رغم كلِّ الجراحِ في صدركَ الحُرِّ ورغم الوعيدِ إثر الوعيدِ
زمجرت فيكَ غضبةٌ للمُثَنَّى فاستجابت له غضاب الأسود

كما يبدو تفاؤله في حديثه عن دمشق وحنينه إليها فيمزج بين جمال رباها ورياضها وبين عزها ومنعتها وإبائها، فهي ساحة لجند الحق وهي حصن منيع يعز على الباغين فلا يستطيعون النيل منها فيقول [2] – من الطويل –:

---

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٦ .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٣١ .

دمشـــق حنـــيني جـــذوةٌ تتضـــرَّمُ وقلـــبي بـــإخوان العقيـــدة مُغـــرَمُ
خطـرتُ بهـا يومـا أتيـه علـى الـورى وفيهـا لجنـد الحـق سـاحٌ ومنـزلُ
ســرَى بــرَدى رفقــا يبــوح بســره وكــان حــنينُ البــوح للســر يكــتمُ
يحـدّث أزهـار الريـاض عـن الـذي يلاقيـه مـن جَـلاّدِهِ وهـو يبسـمُ
حنانَيـك يـا فيحـاء حُبُّـك مـورق وفي كـل قلـب مـن رياضـك بـرعم
عهـدتك يـا فيحـاء نـارا علـى العـدا ونـورا يضـيء الـدربَ والليـل مظلـم
عهـدتك يـا فيحـاء سـيفا قرابـه يظـلُّ بشـوقٍ للقـاء فيُحـرِمُ
عهـدتك يـا فيحـاء حصـنا منيعـة جوانبُـهُ مـا بالـه يتهـدَّمُ
عهـدتك يـا فيحـاء جنـدا لرايـة يبـاهي بهـا في السَّـاحِ زنـد ومعصـمُ
لـدى كـل روض مـن رياضـك ظبيـة وفي كـل ركـن مـن عرينـك ضـيغم

ثم يتحدث في القصيدة نفسها عن ألمه لما أصابها، ويحن إلى نور الفجـر المشرق بالنصر، فيدعوها للثورة على المستعمرين الغاصبين، فأرضها تموج بجند الحق من أبنائها يجمعهم الحق ولا تفرقهم الأهواء، فيقول – من الطويل:

دمشـق الأبـاة الصـيد رفقـا بشـاعر يـذوب حنينـا كيـف لا يتـألم
يحـن لنـور الفجـر طـاب أذانـه ويعشـق أطيـار الصـباح تـرنم
دمشق الأباة الصيد عهدي بصيدها رجالا أباة الضيم والعهد مبرم
كمـاة حمـاة بـايعوا المجـد فـاهرعي لكل كميّ صادق العهد منهم
وقـومي لشـهباء المعـالي لعلـها تمـدُّ يـدا في الله تقسـو وترحم
وهـزي ببيـداء الشـام أسـنة لعل البوادي يا دمشق تدمدم

تموج بجند الحق في الزحف ظافرا يقود جنود الحق للحق مسلم

وتبدو صورة المكان – الوطن العربي – في نفس الشاعر حين يدعو إلى الوحدة بين الأقطار العربية متحدثا عن بطولات العرب في كافة الأقطار العربية التي تحولت في نفسه كل الأماكن إلى مكان واحد يجمع امة واحدة، فيقول[1] – من الخفيف –:

سوف يصليهم العراق بنار فتنادي الشام هل من مزيد
وعلى الأردن الأبيُّ رجالٌ يزرعون الهضاب بالبارود
والنفوس الظمأى ليوم لقاء لا تبالي يا "علج" بالتهديد
ولئن لان للعراق ذراع سوف يقوى ذراعه من جديد

كما يبدو حبه للمكان – الوطن العربي – من خلال إظهار حبه لفسطين المقدسة تارة والأردن والجولان تارة أخرى، وهي في واقع الأمر أجزاء من الوطن العربي، ولكنها تجمعها وحدة المكان ووحدة التاريخ ووحدة الدين، فهذه الوحدة أعمق حقيقة يدعو إليها الشاعر من خلال عشقه لهذه الأماكن والبلدان العربية حين يقول[2] – من مجزوء الوافر –:

أحبُّ القدس والجولان أهوى ثلج صنّين
أحبُّ الأردنَ المعطاءَ من كفّيه يسقيني

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٠٧ .
(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .

وأعشــق أمــة التوحيــد والقــرآنُ يهــديني

وحــبُّ الله والأوطــان يجــري في شــراييني

ثم نجد هذه الرغبة الأكيدة في نفس الشاعر للوحدة بين الأماكن العربيــة حين يتمنى " أن تتحقق الوحدة العربية بين أقطار الــدول العربيــة بأســلوب الاستفهام (متى) الدّالة على الزمن المستقبلي المنتظر، بحيث تجمع هذه الوحدة بين الرباط في أقصى المغرب العربي، وبغداد في أقصى الشــرق العربــي، جاعلا محور الصراع العربي الصهيوني بينهما، وكأنه يذكِّر بضرورة التوحد من اجل هذا الرمز الإسلامي المتمثل في القدس، ويــذكِر الأقطــار العربيــة الأخرى كعمّان وحلب ودمشق والنيل ومكة"(١)، حين يقول(٢) – من البسيط –:

متــى الربــاط تُلاقــي دار معتصــم وتحضُــنُ القــدس في أفرحهــا

وتزدهــي بــالعلا عمّــانُ شــامخةً تلقــى دمشــق ونصــر الله قــد قربــا

والنيــل ينســاب في أعماقــه أمــل أنْ يجمــعَ الله في شــطآنه العربــا

ويجمــع الشّــمل في أم القــرى علــم ونــذود عنــه وجنــد الله قــد غلبــا

بالــدين والحــقِ والإيمــان وحَّــدنَا وبــالأُخوَّة يــزداد الإبــاء إبــا

ونلاحظ هنا تنوع علاقة شاعرنا بالمكان من قصيدة لأخــرى، فظهــر الشوق إلى المكان في وجــدان القصيدة، ومزج فيها بين جمالية المكان وبين

(١) يوسف العظم شاعرا ص ٨٠

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٥١ .

الروح الوطنية الثائرة، والرغبة في توحيد الأماكن العربية عن طريق توحيد صفوف الأمة.

وهكذا نجد ارتباط الشاعر بالمكان ليس بوصفه مكاناً فحسب، وإنما من خلال ظاهرة جديدة مواكبة للأحداث التي تدور في العالم العربي، ولقد ظل المكان في الشعر علامة بارزة لإظهار القصيدة، وقد تبين أن شاعرنا يضع المكان في مقدمة اهتمامه عند كتابته للقصائد، لذا نجد الارتباط الوثيق بين المكان والشاعر الذي ما زال حتى الآن يمثل نموذجاً رائعاً للشعر بوصفة نصاً محاكياً للمكان بروح شفافة وعاطفة صادقة.

المبحث الثالث

دراسة فنية في شعر المكان عند يوسف العظم

أولا: المعجم الشعري

مما لاشك فيه أن المعجم الشعري يقوم في الأساس على اللغة من حيث اختيارها وإيحاءاتها ومدى ملاءمتها لطبيعة الموضوع التي تبنى عليه القصائد الشعرية.

وللغة دور مهم في التجربة الشعرية، فبها يتم الاتصال وتنتقل المعاني، وتبرز جماليات النص الشعري، وهي الحركة الثانية في الشعر، التي تتوازى بالضرورة مع المضمون الشعري الذي تشكل عالمه، وتقدمه بصورة فنية " لن الرؤية تتشكل من صميم الحركة الثانية، فليس ثمة مضمون منفصل عن حركة البنية الداخلية للفن الشعري، فإدراك الواقع إدراكا جماليا يلغي بالضرورة عملية الفصل بين الشكل والمضمون "(١).

ولقد كان للغة دور مهم للكشف عن جماليات المكان في شعر يوسف العظم، فالشاعر يبني مكانه، ويصور جمالياته عن طريق اللغة المكثفة المعبرة عن المعاني والأفكار التي يريد أن ينقلها للمتلقي، وذلك لما للغة من مهمة بارزة في العمل الأدبي " ليس في ذاتها فحسب ولكن فيما تشف عنه من عناصر اخرى هي قوام العمل الشعري، ففي القصيدة الشعرية تشغلنا اللغة في

(١) عبقرية الصورة والمكان ص ٥٠ .

ذاتها – لأنها على نحو ما وصفها بعض النقاد – كالزجاج الذي ينظر من خلاله إلى غيره "[1].

فالشاعر يوسف العظم استطاع الاعتماد على قوة التعبير من إيحاءات، واللغة عنده عنصر بارز يقاربها ليودعها تجاربه الخاصة وتعبيراته المكانية، فابتعد بلغته عن المعاني المعجمية إلى الإيحاء، وابتداع العلائق بين الألفاظ وإيحاءاتها الإشارية، فجاءت اللغة عنده مناسبة لهدفه قادرة على التعبير عن أفكاره، وقادرة على التأثير فيمن يوجه إليهم الشعر، وذلك لفهمه طبيعة الشعر ودوره ورسالته.

ومن هنا كان المعجم الشعري عند العظم يمتاز بالتوافق بين الموضوع والألفاظ المستخدمة فيه، فنجده في تصوير المكان المقدس يعتمد على الألفاظ التي توحي بالإشراق والنور والأمل، على حين نراه في وصف المكان الطبيعي والمدن تتسم ألفاظه بالهدوء والرقة، بينما نلمح في تصويره للمكان الوطن العربي مفردات ذات نبره قوية تغلفها روح التحدي والصمود.

فحين تناول الشاعر تصوير المكان المقدس جاءت لغته رقيقة سهلة معبرة عن الإشراق والنوري والروحانية التي انبعثت من الأماكن المقدسة في نفس الشاعر.

فجاء معجمه الشعري متسما بالهدوء والرقة والإحساس الروحي والديني حيث دار حول (الضوء – النور – القداسة – العبادة – رحاب الهدي –

(١) عبقرية الصورة والمكان ص ٥٢ .

المحراب – الأقصى – المصحف – المسجد – الوحي – المنزل) وما يشبه ذلك.

فحين تحدث عن الكعبة المشرفة في قوله[1] – من الرمل–:

قبلتي الكعبة ما أبهى ضياها
ملأ الإيمان والنور رباها
وخليل الله قد أعلى بناها
في بلاد طهَّر الله ثراها
درة الأكوان والدنيا أراها
ما لنا من كعبة يوما سواها

يدور المعجم حول الضياء والإيمان والنور والربا، إذ طغت روحانية المكان وإشراقه على ألفاظ القصيدة.

وكذلك حين يحدث عن القدس في قوله[2] – من السريع –:

يا قدس يا محراب يا منبر يا نور يا إيمان يا عنبر
أقدام من داست رحاب الهدى ووجه من في ساحها أغبر
وكف من تزرع أرضي وقد حنا عليها ساعدي الأسمر
من لوث الصخرة تلك التي كانت بمسرى أحمد تفخر

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٨٨ .
(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥ .

وأمطـــر القـــدس بأحقـــاده فـــأحرق اليـــابس والأخضـــر

تظهر قدسية المكان وعظمته من خلال المعجم الشعري المشرق بالإيمان في قوله: (يا محراب – يا منبر – يا نور – يا إيمان – يا عنبر).

ويؤكد الشاعر على هذه الألفاظ بإيحاءاتها في نفس القصيدة حين يقول[1]:

القـــدس في أفـــق العـــلا كوكـــب تشـــع بـــالنور فـــلا تعجبـــوا
أيامهـــا بـــالحق وضّـــاءة كانـــت بـــأطراف القنـــا تكتـــب
إن أطـــرب القيثـــار أسماعنـــا فـــاللحن في أفـــق اهـــدى أعـــذب
أو حلّـــت الأمجـــاد ســـاح العـــلا فالمســـجد الأقصـــى لهـــا أرحـــب

فمعجم هذه الأبيات أيضا يدور حول الوضاءة والعذوبة والنور حين تبرز في قوله: (أفق العلا – كوكب – النور – تشع – الحق – وضاءة – أطرب – القيثار – الأمجاد – أعذب).

كما نلاحظ أن الشاعر كان يمزج بين ألفاظ الطبيعـــة وألفـــاظ الإشـــراق والنور، فيوظف ألفاظ الطبيعة ويحملها الكثير من الدلالات التي تشـــير إلـــى قدسية المكان وروعته وجماله فيقول[2]:

يـــا روضـــة كانـــت لنـــا مرتعـــا وكـــوثرا مـــن فيضـــه نشـــرب
وجنّـــةٌ فيهـــا ربيـــع المنـــى في ظلـــها أكبادنـــا تلعـــب

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٦ .

(١) المرجع السابق ص ١٦ .

ومن هذه الدلالات للمعجم الشعري يتضح " أن القدس ألهبت وجدان الشاعر وروحه، وجعلت القول يجري على لسانه عذبا ورقراقا، فما أحسه نحوها حمل أبعادا روحية ودينية ونفسية وعاطفية وسياسية، تثير الاعتزاز والإعجاب والفخر وتبعث على الانتماء، فمعاني القداسة والطهارة برزت عبر امتدادات تاريخية وزمانية "(١).

ويستمر الشاعر في الاعتماد على هذا المعجم حين يستخدم ألفاظ (عقيدة – وسام – صرح – العلياء – أرض النور – السجود) في قوله(٢) – من الرمل المجزوء –:

إنما الأقصى عقيدة ووسام وقصيده
وهو صرح أبت العلياء إلا أن نشيده
بارك الله حواليه بآيات مجيده
وهو أرض النور فيه المصطفى أرسى سجوده
وهو رمز للمعالي زيّن التاريخ جيده
عمر يطرق أبواب العلا يرعى جنوده
وحسام من صلاح الدين يجتاح قيوده
فارس الحلبة يعلي في حمى الله بنوده

(٢) القدس في ديوان " في رحاب الأقصى " دراسة تحليلية د/ ماجد محمد النعماني ، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية مجلد ٢١ ، العدد الأول يناير ٢٠١٣ ، ص ١٩٢ .
(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥٨ .

ويتغير معجم الشاعر في حديثه عن الأماكن المقدسة حين يرسم الصورة الحزينة لهذا المكان بعدما دنسه اليهود بأقدامهم، فيلجأ الشاعر غلى المعجم الذي يناسب هذه الصورة في قوله[1] – من الخفيف –:

وأنين الأقصى الجريح ينادي
واصلاحي وا رايتي وا جنودي
وجدار البراق دنس بالعار
وبالرجس من علوج اليهود
وغصون الزيتون شاحبة اللون
على قدسها بلا غريد
والربوع الخضراء باتت هشيما
وخلا الروض من عبير الورود

فنلاحظ على المعجم هنا الإحساء بالذل والانكسار والهزيمة والشحوب عبر قوله: (وا صلاحي – وا رايتي – وا جنودي – شاحبة اللون – بلا غريد – هشيما– خلا الروض)، فقد أعطت واو الندبة إحساسا بإطالة الألم وامتداده، كما كان للمفردات الدالة على تحول اللون دور في رسم صورة من شحوب اللون وتحول الأخضر إلى مناقض، وتحول عبير الورود من رائحته إلى رائحة مناقضة، فقد أسهم المعجم المناسب لهذه الحالة في إبراز الواقع الأليم لهذا المكان المقدس عبر دلالة هذه المفردات وإيحاءاتها.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ .

وحين ينقلنا الشاعر للحديث عن المكان الوطن العربي ترتسم في نفسه صور من كفاح الأقطار العربية، فجاءت مفرداته قوية معبرة عن هذا الكفاح ليرسم بها بنية المكان ودلالاته وأبعاده الوطنية والقومية.

ففي بعض النماذج الشعرية عنده وجدنا الألفاظ الموظفة في تجسيد المكان والتعبير عن دلالاته، صاخبة بالحركة للإيحاء بقدرة المكان على التفاعل حين يقول[1] – من الخفيف:

سوف يصليهم العراق بنار فتنادي الشام هل من مزيد
وعلى الأردن الأبيُّ رجالٌ يزرعون الهضاب بالبارود
والنفوس الظمأى ليوم لقاء لا تبالي يا "علج" بالتهديد
ولئن لان للعراق ذراع سوف يقوى ذراعه من جديد

فنجد الألفاظ التي تدل على الحركة والقوة تتمثل في قوله: (يصليهم العراق – تنادي الشام – يزرعون الهضاب بالبارود – التهديد – يقوى من جديد)، فهذه العناصر الموحية بالحركات، تعبر عن دلالات الصورة المكانية، وما كانت الألفاظ تتشكل على هذا النحو، إلا لتعبر أعمق تعبير عن حالة الأمل المنشود في وحدة العرب هذه الوحدة التي تنبعث من قوتهم وتماسكهم.

ونراه في حديثه عن دمشق يستخدم معجما يمتلئ بالقوة والصمود فيقول[2]:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٠٧ .
(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٣١ .

عهدتك يا فيحاء نارا على العدا ونورا يضيء الدربَ والليل مظلم
عهدتك يا فيحاء سيفا قرابه يظلُّ بشوقٍ للقاء فيُحرِمُ
عهدتك يا فيحاء حصنا منيعة جوانبُهُ ما بالُه يتهدَّمُ
عهدتك يا فيحاء جندا لراية يباهي بها في السَّاحِ زند ومعصمُ
لدى كل روض من رياضك ظبية وفي كل ركن من عرينك ضيغم

فجاءت هنا ألفاظه قوية هادرة حين يقول: (نارا على العدا – سيفا– حصنا منيعة – يتهدم – جندا لراية – عرينك ضيغم)، فألفاظه تبرز موقفه من دمشق الأبية، وتبرز مكانتها المعروفة على مر التاريخ من قوتها وصلابتها في مواجهة الأعداء.

ويستمر الشاعر في الاتكاء على المعجم الشعري بألفاظه القوية في تصوير المكان الوطن العربي، ويبرز ذلك في حديثه مرة اخرى عن العراق فيقول:

لاحَ برقٌ من العراق فدوَّتْ في ربى القدسِ قاصفاتُ الرعود
إيه شعب "العراق" أنت المُرجَّى بعد دهر من الليالي السود
رغم كلِّ الجِراحِ في صدركَ الحُرِّ ورغم الوعيدِ إثر الوعيدِ
زمجرت فيكَ غضبةٌ للمُثَنَّى فاستجابت له غضاب الأُسود

فتعددت هنا الألفاظ القوية المزمجرة حين يقول: (دوَّت – قاصفات الرعود – الوعيد – زمجرت – غضاب الأسود)، فألفاظه القوية توحي بقوة العراق الذي يتمناها نقطة انطلاق للثورات العربية ضد المستعمرين.

ويرز أيضا المعجم القوي حين يتحدث عن الجزائر مطالبا إياها بالصمود والتحدي فيقول[1]:

جزائـر العـز أنـت العـز فـانطلقي لتسحقي من بدين الله قد سخروا
وأشعلي النار من وهران يوقدها سُمر الزنود لساح المجد قد نفروا
لك التحية من عمَّان شامخة ترنو إليك بثوب العزِّ تأتزر

فتتمثل في ألفاظ (انطلقي – تسحقي – أشعلي النار – سمر الزنود – نفروا) القوة والحركة، كما توحي بالصمود والتحدي الذي استحق التحية من شقيقتها عمان.

وحين تقوى إرادة الوطن ويشتد ساعدها يتغير معجمه الشعري من القوة إلى الأمل والفرح، فيستعين بالمعجم الذي يبرز موقفه الفكري تجاه هذه القوة وتلك الإرادة، فيقول:

تسألُ الغادة عن أيامنا عند يافا عند باقي القدس
في غدٍ يشرقُ فجري ضاحكا ويُذيبُ النُورُ ليل الغلسِ(٢)

فألفاظ (الغادة – غد يشرق – ضاحكا – يذيب النور ليل الغلس) كلها ألفاظ تمتلئ بالفرح والسعادة والأمل.

وفي حديثه عن الفرح أيضا يستخدم المعجم المماثل لذلك حين يقول[3]:

---

(١) الأعمال الكاملة ص ٣٠٤ .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٧

رددي يـا جبـال أهزوجـة النصـر عزيـزا ويـا سـهول اسـتزيدي

فـدماء الشـهيد أضـحت خضـابا للصـبايا والعـذاري الغيـد

فيستخدم الشاعر هنا الألفاظ المعبرة عن الفرح في حديثه عـن الشـهيد فيطلب من الجبال أن تهتز فرحا وأن تردد أهازيج النصر، إذ أصبحت دمـاء الشهيد خضابا للعذارى الغيد.

وحين ينتقل الشاعر للحديث عن المكان الطبيعي، نراه يعتمد فـي رسـم صورة المكان على الألفاظ الهادئة التي توحي بهدوء المكان، وبحالة الطمأنينة التي يعيشها المكان، ومن ذلك قوله[1] – من البسيط –:

وراعـني مـن "أبـي ظـبي" مفاتنـه ولـو لمحـتُ علـى شُـطآنِهِ ذهبـا

"والعـين" ترنـو لنـا ودًّا وتكْرُمَـةً وقـد بـدا النخـل في أطرافهـا هُـدْبا

يحنـو علينـا ظـلالا وهـي وارفـةٌ ويُغـدقُ الخـيرَ مـن أفنانـه رُطَبـا

وفي "دُبـي" لقينـا صـحبةً طَهُـرتْ للـبر صـرحٌ علـى شـطآنها انتصـبا

وقـد زهـت أفقـا بالنور "شـارقةٌ" بهـا شـباب لنيـل العـزِّ قـد وثبـا

وفي "الفجـيرة" مَـنْ رقَّـت شمائلـهم يصـافحون علـى بـر شـباب دبـا

"ورأس خيمـة" لا عـدمتُ بهـا صحبًا فؤادي فداهُم مكنوا الطُّنبا

"عجمان" إن عجمت عيدانها وجَدَتْ فيهم سيوف الهُدى عند اللقا قضبا

"أم القـوين" حنَـت أمًّـا علـى فئـة من الشباب تسـاموا في الهـدى نسـبا

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٤٩ .

فألفاظه (النخل – يحنو – ظلالا – وارفة – الخير – أفنان رطب – شطآن – زهت – النور) تميل إلى الرقة والخفة مما يجعل القارئ ينجذب إلى هذه الأماكن تارة، ويستمتع بشعر الشاعر تارة أخرى.

وفي حديثه عن الأماكن العربية ذات الطبيعة الخلابة يقول[1] – من البسيط –:

ماذا أصاب كثيب الرَّمل واعجبا ... يختالُ بين الرَّوابي يكتسي عُشبا

مُذْ صار رابيةً يكسو جوانبها ... وردٌ تغنى بها طيرُ الفلا طَرِبا

وأورقَ الرملُ في صحراءَ قاحلةٍ ... فكيف أضحتْ رمال البيد خُضْرَ ربى

في كلِّ حبةِ رملٍ زهرةٌ عبقَت ... وكلِّ ساقيةٍ ماءٌ بها عَذُبا

تراقصَ الماءُ في الأحواضِ مُنْبجِسا ... وكان من قبلُ في بطْحائِنا قُلُبا

ونافسَ الشيحَ وردٌ في براعِمِه ... يفُوحُ بالعطر سبحانَ الذي وَهَبا

قد بدَّلَ اللهُ وجه الأرضِ فازدهرت ... وغيَّرَ اللهُ البيدَ فانقلبا

فألفاظه هنا تنتشي بالرقة والانسيابية التي نلمسها في كثبان الرمل الذهبية، واكتسائها بالعشب والورود، وفي تراقص الطيور المترنمة الفرحة، وتدفق الماء الرقراق المتراقص في الأحواض، وتنافس الورود والأزهار في نشر عبقها الفواح الذي يملأ الأرض سحرا وعطرا وجمالا.

وعن بحيرة لوجانو يقول[2] – من البسيط –:

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٥٠ .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٨٦ .

لقد سجت في سكون الفجر "لوجانو" وازَّينت في ربيع الكون شطآن
تعانق الزورق المنساب في جذل مياهها وهو فوق الماء جذلان
بحيرة ليس للأمواج مضطرب في شاطئيها وفيها السحر ألوان
فالشمس تبرمذاب فوق جبهتها والنور في جيدها در وعقيان
وشامخ الراس يحثو في عباءته تلفه من شعاع الشمس أردان
كأنما القمة الشمَّاء فاتنة بالورد تزهو والأغصان تزدان
خميلة يعشق الولهان جيرتها ويصدح الطير فيها وهو هيمان
والناس حولي أنماط وأمزجة يحيط بي من بني الإفرنج طليان

فالشاعر اعتمد على الألفاظ الرقيقة الخفيفة مثل: (سجت – سكون الفجر – ازَّينت – شطآن – ألوان – تعانق – فاتنة – الورد – تزهو – الأغصان – تزدان – خميلة يصدح الطير – الولهان)، وهي توحي بهدوء المكان والطمأنينة والسكينة.

فقد أسهمت الألفاظ الموظفة في تجسيد المشهد المكاني في ظهور جو من الهدوء والصمت المطبق على المكان تعبيرا عن الاستقرار والطمأنينة التي تعم المكان، وأسهمت هذه الألفاظ في تحول المكان إلى صورة شاعرية هادئة.

ومن خلال ذلك يتضح دور المعجم الشعري في أداء وظيفته في توصيل الأفكار والمعطيات للقارئ من خلال العلاقة والتناسب بين المعجم الشعري وطبيعة التجربة الشعرية وموضوعها.

ثانيا: الصورة الشعرية

الصورة مصطلح نقدي قديم، تنبه إليه النقاد العرب القدامى، ويعد الجاحظ (ت ٢٥٥ه) أول من اطلق تسمية التصوير على الشعر صراحة حين يذهب إلى أن " الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير "(١).

كما ورد هذا المصطلح عند قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ه) حين يقول: " إن المعاني كلها معروضة للشاعر، وله أن يتكلم منها ما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة "(٢).

والصورة الشعرية في النقد الحديث لها أهمية في كشف المعاني العميقة التي ترمز إليها القصيدة، حيث إن الشاعر الحديث " يجعل صوره جديدة أولا ناقلة للتأثير مترابطة في مجموعها بحيث يُكَوِّن منها صورة أكبر "(٣).

وهذا يعني أن الصورة ليست مشاكلة حقيقية للواقع، بل تعكس رؤية الشاعر لهذا الواقع ومدى تفاعله معه " ذلك أن الشاعر الجيد لا يشاكل بصوره الواقع الذي يصوره مشاكلة حقيقية، لأنه لا يصور هذا الواقع في ذاته، ولكنه يعكس رؤيته له، ومن ثم فإنه حين يعرض لتصويره يحرص على ان يخلق

---

(١) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط٣ ط المجمع العلمي العربي الإسلامي – دمشق سنة ١٩٦٩م ١٣٢/٣ .

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ط دار الكتب العلمية – بيروت ص ٦٥ .

(٣) فن الشعر د/ إحسان عباس ط دار صادر بيروت ط١ سنة ١٩٩٦م ص ١٩٤ .

صورته خلقا جديدا يعكس هذه الرؤية أو تلك العلاقات الجديدة التي خلقها الشعراء بين عناصر الصورة المختلفة"(١).

ويعتمد الشعراء عادة على الصور الجزئية من التشبيهات والاستعارات والكنايات لأنها العناصر الأساسية في تشكيل الصور الفنية بما تحمله من إيحاءات وألوان وحركة تؤدي وظيفتها في نفس المتلقي.

وتعد الصورة من أبرز التقنيات التي تؤدي دورا بارزا في الشعر المعبر عن المكان، إذ إنها إحدى الأساليب التي تسهم في تقريب المكان من المتلقي، وكشف عن كثير من العلاقات الفنية إلى جانب دورها في تجسيد المكان واستنطاقه عما يحمله من رؤى وأفكار.

ولقد وظف الشاعر يوسف العظم الكثير من الصور الجزئية التي شكلت صوره الشعرية ليكشف من خلالها عن مكنونات نفسه ومشاعره الذاتية، ورؤاه الفكرية المرتبطة بتجربته الشعرية عن الأماكن التي كانت محور البحث.

فمن التشبيهات التي وظفها الشاعر التشبيه البليغ في قوله عن القدس(٢):

سفوحك الخضر ربوع المنى وتُربك الياقوت والعسجد

فهذا التشبيه البليغ يكشف عن العلاقة الحميمة الدافئة بين الشاعر ومدينة القدس، فالسفوح الخضراء تمثل له غاية المنى، وترابها من تراب الجنة من الياقوت والعسجد.

---

(١) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د/ إبراهيم عبد الرحمن ط مكتبة الشباب – القاهرة سنة ١٩٧٩م ص ١٧٩ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥ .

وللمكانة المقدسة للقدس يوظف الشاعر التشبيه البليغ مرة أخرى في قوله[1]:

القدس في أفق العلا كوكب تشع بالنور فلا تعجبوا

فهنا نلمس القيمة الروحية لهذه المدينة المقدسة، فهي رمز الهداية والنور التي حاول المغتصب أن يطمس ذلك دون جدوى، فهي عالية مثل الكوكب ومن فيض نورها تستمد القلوب إشراقات النصر والفجر الجديد.

وقول الشاعر أيضا عن هذه المدينة المباركة[2]:

القدس أم طهرها غامر وحضنها بعض رياض الجنان

فالشاعر بهذا التشبيه المفعم بالحب لهذه المدينة يبين قيمتها في نفسه، فهي رمز للطهارة والحنان حين يشبهها بالأم الذي حضنها بعض من رياض الجنان، فالتبعيض هنا يشير إلى عظمة القدس الذي تمثل حضنا دافئا لكل من يأت إليها.

وأحيانا كان الشاعر يأتي بتشبيه الجمع حين يذكر مشبها واحدا ومشبها به متعدد في حديثه عن القدس ليبين الأهمية التي تشكلها القدس في نفسه فهي رمز قوته المادية والمعنوية، فبها يتجدد الإيمان وتسكن الروح، فالقدس سيف

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٦ .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٨ .

للنخاس يطعنه، وسيف للفارس ينصره، وومضة الإيمان في نفسه، كما انها هدأة للنفس وروح وأمان، فيقول[1] – من السريع –:

القدس يا نخاس سيف الطعان وفارس الحلبة في المعمعان

وومضة الإيمان في خافقي وهداة النفس وروح الأمان

وشاعرنا يعمد إلى هذا التشبيه كثيرا ليرز قدرته في استخدام أطراف التشبيه لإبراز الصورة الفنية المعبرة التي تدعم موقفه الفكري الذي يلح عليه شريطة أن يرتبط ذلك بالبعد الجمالي، فحين يتحدث عن مدينة (حماة) يقول[2] – من الرمل –:

أنت فجر لغدٍ مستبشر وشعاع من ضياء الحرم

أنت عنوان جهاد خطه شعبك الحر بأزكى قلم

أنت ترتيلة عزٍّ وهدى وشموع وجهاد ملهم

أنت سيف الحق إذ تحمله راحة الله من كف المسلم

أنت خفاق على هام العلى في يد الحرِّ كريم الشِّيَم

أنت لحن خالد تعزفه راحة التاريخ عف النَّغم

أنتِ بركان تلظَّى ناره يقذف الباغي بسود الحمم

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٨.

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٣٢ .

فيشبه مدينة (حماة) أغرودة المجد العربي فهي الفجر المشرق وعنوان الجهاد وترتيلة العز وسيف الحق ولحن خالد وبركان يقذف الباغين بحممه، إشارة إلى دور حماة في الجهاد المقدس.

كما يعتمد الشاعر أيضا على الاستعارة في تشكيل صوره لكون الاستعارة " عنصر أصيل من عناصر الشعر، بل هي روح الشعر ؛ لأن الشاعر بفضلها يستطيع أن يقيم علاقات بين الأشياء، وهذه العلاقات تزيد جمال الشعر بما فيها من إيحاء في التصوير، ودقة في التعبير، وجدة وطرافة في وسائله وصياغته"(١).

ففي قوله(٢) – من السريع –:

يا قدس يا محراب يا منبر يا نور يا إيمان يا عنبر

نجد في هذا البيت مجموعة من الاستعارات التي وظفها الشاعر في بيان مكانة هذا المكان المقدس (يا قدس، يا محراب، يا منبر، يا نور، يا عنبر)، وهذا التوظيف يبرز مكانة القدس وحبه الشديد لها، فهي رمز الطهارة والإشراق، وهي مهبط النور والإيمان، وهذا التعدد للاستعارة " يعكس حرصه على تشكيل الصورة تشكيلا فنيا مؤثرا وبارعا، ولكن لم تكن الغاية من ذلك إظهار البراعة والقدرة الفنية على صناعة الصورة وصياغتها، بل كان الغرض إحداث تأثير جمالي من خلال إثارة الانفعال في نفس المتلقي، وتوليد

(٢) الصورة بين البلاغة والنقد د/ أحمد بسام ساعي ط دار المنارة للطباعة – دمشق سنة ١٩٨٤م ص ٨٥ .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥ .

نزعة دينية روحية تربط الإنسان بمقدساته كجزء لا يتجزأ من اعتداده بدينه والمحافظة عليه "[١].

ويستعين الشاعر بالتشخيص كثيرا لرسم صوره فيقول[٢]:

وإذا المسجد الجريح دعاني قلت لبيك يا نداء السماء

فهذه الاستعارة المكنية تبرز حالة الحزن والألم التي سيطرت على المسجد الأقصى سيطرة تامة مما استدعاه لدعوة من ينقذه ويخلصه، ويمسح جراحه، فكان الشاعر ملبيا هذه الدعوة.

وعلى نفس الوتيرة يأتي قوله [٣] – من الرمل –:

وفؤاد الأقصى الجريح ينادي

حيث تكشف هذا الاستعارة عن كون الأقصى كائن له إحساس، ويعاني مثلما يعاني المؤمنون الراسخون تحت نير الاحتلال.

ولما كانت الصورة الشعرية عنده منسجمة مع غايته، ومؤدية وظيفتها في الربط بين المبدع والمتلقي، جاءت عنده العديد من اللوحات الفنية التي تكشف جمالية المكان وأثره في نفس المتلقي حزنا وفرحا وتجاوبا، ويبدو ذلك حين يبين حالة الحزن والأسى التي انتابته حين وقف أمام (دير ياسين) حيث تبرز

---

(٢) القدي في ديوان (في رحاب الأقصى) دراسة تحليلية د/ ماجد محمد النعماني مقال منشور بمجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية مجلد ٢١ – العدد الأول سنة ٢٠١٣م ص ٢٠٠، ٢٠١ .

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٢٦ .

(٤) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢٢ .

الصورة المأساوية حين يصف الشاعر ضروب الغدر في هذا المكان، وتمتلئ نفسه بالثورة العارمة لمشهد الأطفال الشهداء الذين اغتالتهم الأيادي اليهودية، عندما حولوا رياض الأطفال إلى ميادين حرب، فيقول [1] – من الرمل–:

روضة الأطفال ماذا قد دهاها وبنار الموت صهيون رماها

لم يراعوا حرمة العلم ولم يخشعوا للطهر قد زان الجباها

ليس بالشكوى يرد المعتدي إنما النار يصلون لظاها

ويضع الشاعر أمامنا مفارقة تصويرية يكشف فيها الحال التي آلت إليها مدينة القدس، فبعد الوجوه المشرقة حلت الوجوه الكالحة، وبعد أن صال فيها الأسود، عوت فيها الكلاب، وبعد أن هجر عنها شعبها الرحيم مرغما، حلَّ بها شياطين الإنس من بني صهيون، ومحاريبها المضيئة بتراتيل الفجر أظلمت لما فعله اليهود من منع أهلها من الوصول إليها حتى أن الآذان لم يعد كسالف عهده، فكل شيء تغير في هذه المدينة، فيقول معبرا عن هذه المفارقات التصويرية[2] – من الخفيف –:

جنة الأمن والسلامة والخير حِماها يضجُّ بالإرهاب

(١) ديوان رباعيات من فلسطين للشاعر يوسف العظم ط المكتب الإسلامي – بيروت –ط١ سنة ١٩٧٠ ص ١١ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٦٧ .

دنســـوها وأنبتـــوا في رباهـــا ثمـــر البـــؤس والـــردى والصـــاب
بعـــد أن أنبتـــت رخـــاء الليـــالي في رباهـــا يـــا حلوهـــا مـــن روابـــي
مهـــبط النـــور مـــا دهـــاك لتمســـي مهـــبط الـــذل والإبـــاء الكـــابي

وعلى الرغم من ذلك فقد رسم الشاعر لنا لوحة فنية للقدس جنة لم تدنس فيها العذاري، وعروسا تنتظر بزوغ فجر جديد سيغســل رباهــا، ويمنحهــا صداقها كاملا غير منقوص، هي صورة الأمل المنبعثة مــن نفــس الشــاعر وقناعاته بعودة القدس طاهرة زكية شريفة من أيــدي اليهــود المغتصــبين، فيقول(١) – من الخفيف –:

تلكـــم القـــدس جنـــة وعـــروس لم تـــدنَّس فيهـــا العَـــذارى بلمـــس
يغســـل الفجـــرُ بالضـــياء رُباهـــا فامنحوهـــا صـــداقها غـــير بخـــس

كما نجح الشاعر في رسم لوحات فنية مشرقة حين أخذ في رسم صورة جميلة للطبيعة العربية التي تبعث البهجة في النفوس، حين يقول(٢):

مـــاذا أصـــاب كثيـــب الرَّمـــل واعجبـــا يختـــالُ بـــين الرَّوابـــي يكتســـي عُشـــبا
مُـــذْ صـــار رابيـــةً يكســـو جوانبـــها وردٌ تغنـــى بهـــا طـــيرُ الفـــلا طَرِبـــا

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٠٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٤٩ .

وأورقَ الرملُ في صحراءَ قاحلةٍ فكيف أضحتْ رمالُ البيد خُضْرَ ربى
في كلِّ حبةِ رملٍ زهرةٌ عبَقَت وكلِّ ساقيةٍ ماءٌ بها عَذُبا
تراقصَ الماءُ في الأحواضِ مُنْبجِسا وكان من قبلُ في بطْحائِنا قُلُبا
ونافسَ الشيحَ وردٌ في براعِمِه يفُوحُ بالعطر سبحانَ الذي وَهَبا
قد بدَّلَ اللهُ وجه الأرضِ فازدهرت وغيَّرَ اللهُ البيدَ فانقلبا

فقد اكتملت هنا عناصر الصورة الكلية من كثبان الرمل الذهبية التي اكتست بالعشب والورود، وتراقص الطيور مترنمة جذلاء، وتراقص الماء الرقراق في الأحواض، وتنافس الورود والشيح بعطرها الذي فاح يملأ الأرض وقد ازدهت حسنا، وتبدلت جمالا بعدما كانت بلاقع قفراء.

وفي لوحة كلية أخري يقول(١):

لقد سجت في سكون الفجر "لوجانو" وازَّينت في ربيع الكون شطآن
تعانق الزورق المنساب في جذل مياهها وهو فوق الماء جذلان
بحيرة ليس للأمواج مضطرب في شاطئيها وفيها السحر ألوان
فالشمس تبرمذاب فوق جبهتها والنور في جيدها درٌ وعقيان
وشامخ الراس يجثو في عباءته تلفه من شعاع الشمس أردان
كأنما القمة الشمَّاء فاتنة بالورد تزهو وبالأغصان تزدان
خميلة يعشق الولهان جيرتها ويصدح الطير فيها وهو هيمان

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٨٦ .

والنـــاس حـــولي أنمـــاط وأمزجـــة يحيط بي من بني الإفرنج طليان

فهنا يرسم الشاعر لوحة لبحيرة " لوجانو" فيصف منظرها الخلاب بمياهها التي تعانق الزورق المنساب في فرح وطرب، والزورق يبدو جذلا، وألـــوان أمواجها ذات سحر جذاب، وصورة الشمس فيها كـــالتبر المـــذاب، والجبـــل وسطها يلفه شعاع الشمس كالأردان.

ومن خلال ذلك يتضح تجلي الصورة الشعرية وارتباطها بالمكان كعنصر من عناصر البناء الفني الكاشف عن جمالية المكان عنده، فنراه يرسم العديـــد من الصور الشعرية التي تنوعت أجزاؤها وعناصرها بدءا مـــن التشـــبيهات والاستعارات إلى رسم لوحات فنية زاخرة بالصور الجميلة.

ثالثا: التكرار

التكرار ظاهرة أسلوبية قديمة، يميل إليها الشعراء نتيجة إلحـــاحهم علـــى فكرة ما يريدون أن تصل إلى القارئ بعد أن استقرت ورسخت لديهم.

وتتشكل ظاهرة التكرار في الشعر العربي بأشكال مختلفة متنوعة فهي تبدأ من الحرف وتمتد إلى الكلمة وإلى العبارة وإلى بيت الشعر، وكل شـــكل مـــن هذه الأشكال يعمل على إيراد جانب تأثيري خاص للتكرار، " وتجدر الإشارة إلى أن الجانب الإيقاعي في الشعر قائم على التكرار، فبحور الشعر العربـــي تتكون من مقاطع متساوية والسر في ذلك يعود إلى أن التفعيلات العروضـــية متكررة في الأبيات فمثلاً في بحر الرجز: مستفعلن مستفعلن مستفعلن، هـــذا بالإضافة إلى التفعيلة نفسها تقوم على تكرار مقاطع متساوية، إن هذا التكرار المتماثل أو المتساوي يخلق جوًّا موسيقيًّا متناسقاً، والإيقاع ما هو إلاَّ أصوات

مكررة، وهذه الأصوات المكررة تثير في النفس انفعالاً ما، وللشعر ناح عدة للجمال أسرعها إلى نفوسها ما فيه من جرس الألفاظ، وانسجام توالي المقاطع وتردد بعضها بقدر معين، وكل هذا ما نسميه بموسيقى الشعر ".[١]

ولذلك فإن التكرار يمثل " ظاهرة موسيقية ومعنوية في آن واحد، فهو ظاهرة موسيقية عندما ترد الكلمة أو البيت أو المقطع على شكل اللازمة الموسيقية، او النغم الأساسي الذي يعاد ليخلق جوًّا نغميا ممتعا، ويصبح هذا التكرار على المستوى اللغوي ذا فائدة معنوية، إذ إن إعادة ألفاظ معينة في بناء القصيدة يوحي بأهمية ما تكتسبه تلك الألفاظ من دلالات، مما يجعل ذلك التكرار مفتاحا في بعض الأحيان لفهم القصيدة "[٢].

وتتحدث الدكتورة نازك الملائكة عن هذه الظاهرة في الشعر العربي، مبينة أن التكرار في ذاته ليس جمالاً يضاف إلى القصيدة، وإنما هو كسائر الأساليب في كونه يحتاج إلى أن يجيء في مكانه من القصيدة، وأن تلمسه يد الشاعر تلك اللمسة السحرية التي تبعث الحياة في الكلمات، لأنه يمتلك طبيعة خادعة فهو على سهولته وقدرته في إحداث موسيقى يستطيع أن يضلل الشاعر ويوقعه في مزلق تعبيري لأنه يحتوي على إمكانيات تعبيرية تغني المعنى إذا

---

(١) انظر بناء الأسلوب في شعر الحداثة ــ د/محمد عبد المطلب ــ القاهرة ١٩٨٨، ٣٨٨، ظاهرة التكرار في شعر أبي القاسم الشابي- بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية – مكة المكرمة العدد السابع عام ٢٠٠٢م لزهير أحمد المنصور ص ٤.

(١) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ، صالح أبو أصبع ط١ ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت سنة ١٩٩٧م ص ٣٣٨ .

استطاع الشاعر أن يسيطر عليه ويستخدمه في موضعه وإلا فإنه يتحول إلى مجرد تكرارات لفظية مبتذلة، كما أشارت إلى أنواع التكرار وحصرتها في تكرار الكلمة والعبارة والمقطع والحرف وترى أن أبسط أنواع التكرار تكرار كلمة واحدة في أول كل بيت من مجموعة أبيات متتالية في قصيدة، وهو لون شائع في شعرنا المعاصر، يلجأ إليه صغار الشعراء ولا يعطيه الأصالة والجمال إلا شاعر موهوب حاذق يدرك المعول لا على التكرار نفسه وإنما ما بعد الكلمة المكررة. (١)

فبنية التكرار على اختلاف أنماطها من تكرار حرف أو لفظ أو عبارة أو مقطع تحل في كل نص شعري على نحو من الأنحاء؛ لتعطينا قيمة فنية هي الإلحاح على جهة هامة في العبارة، يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها، ويسلط الضوء على نقطة بارزة في العبارة تكشف عن اهتمام المتكلم بها وتشحن المتلقي بالعديد من القيم الفنية التي يرمي إليها الشاعر.

والناظر إلى شعر العظم في المكان يجد كثرة التكرار في شعر المكان عنده، ولم يكن التكرار ظاهرة عبثية عنده، وإنما كانت مقصودة في كل موقع من شعر المكان عنده، فكان التكرار عنده موحيا بمغازٍ عميقة لها دورها في المضامين الشعرية التي تناولها في شعر المكان.

" فالشاعر عندما يختار أسلوب التكرار أو يتجنبه فإنه يكون بوعي أو دون وعي قد أدرك أهميته أو عدمها، فهو يستخدم الأسلوب الذي يخدم هدفه

(٢) انظر قضايا الشعر المعاصر ــ د/ نازك الملائكة ص٢٦٣ وما بعدها .

ويجعله متألقا قادرا على أن يثير في نفس السامع شيئا ما، والشاعر يلجأ إلى الإيجاز إذا رأى أن الإيجاز يخدم غرضه، ويلجأ إلى الإطالة والتكرار إذا ما وجد فيهما ضالته المنشودة "(١).

ولقد تنوع التكرار في شعر المكان عند يوسف العظم بدءا من تكرار الحرف ثم الكلمة ثم العبارة علي النحو التالي:

١- تكرار الحرف

تكرار الحروف يقصد به القيم الصوتية التي تحدثها الحروف، وما تحدثه من نغم موسيقي يطلق عليه موسيقى الحرف، وهي تعني " النغم الصوتي الذي يحدثه الحرف، وعلاقة هذا النغم بالتيار الشعوري والنفسي في مسار النص الشعري، ومن المعروف أن لكل حرف مخرجا صوتيا، ولكل حرف صفات، ومخارج الحروف وصفاتها بينها وبين دلالة الكلمة علاقة شعورية وفنية لا يتعمد الشاعر إظهارها بل يتجسد التوافق النغمي والانسجام اللفظي تجسدا فطريا لدى الشاعر الموهوب، المتمكن من أدواته اللغوية والفنية " (٢).

ويمثل تكرار الحرف ظاهرة في الشعر العربي، لما لها من أثر خاص في إحداث التأثيرات النفسية للمتلقي فهي " قد تمثل الصوت الأخير في نفس الشاعر، أو الصوت الذي يمكن أن يصب فيه أحاسيسه ومشاعره عند اختيار

(١) التكرار في الشعر الجاهلي د/ موسى ربابعة ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات / سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد الخامس العدد الأول سنة ١٩٩٠ ص ١٩٨٧ .

(٢) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/ صابر عبد الدايم يونس ط الخانجي ص ٢٨.

القافية مثلا، أو قد يرتبط ذلك بتكرار حرف داخل القصيدة الشـــعرية يكون له نغمته التي تطغى على النص"(١).

وبذلك يرتبط تأثير الجرس الموسيقى لألفاظ الشعر على المتلقي بالطبيعة الصوتية لحروف اللغة العربية، وطريقة تأليفها في إيقاع داخلي يناسب الحالة الشعورية للمبدع، إذ أن الحرف المجرد ليس له قيمة صوتية بمفرده، وإنمـــا يكتسب الحرف المفرد خصائصه الإيقاعية نتيجة ارتباطه بالكلمة داخل البنيـــة الشعرية، وقد تتغير قيمته الموسيقية تبعا لاختلاف موقعه من كلمة أخرى.

وتبدو هذه الظاهرة في شعر يوسف العظم عن المكان في قصيدته الشاطئ البعيد حين يقول يقول(٢):

يا بحرا شطآنه بعيدةٌ بعيدةٌ . . لا تُدرك
وأعماقه غائرة غائرة . . لا يصل إليها تجار
الصَّـــــــــــــــــــــدف
ســـــــــأغوص في أعماقـــــــــك
ســـــــــــأقتحم لجـــــــــــتك
سأطوي الموجَ ســـأخوض اليمَّ
ســـــــأحرق قلـــــبي بخـــــورا
وانثـــــــر دمـــــــي عطـــــــرا
حتـــى أصـــل إلى لؤلـــؤة الرجـــاء

(١) نظرية الأدب رينيه ويليك ترجمة حسام الخطيب ص ١٦٥ ط المجلس الأعلى للفنـــون والآداب بالكويت سلسلة عالم المعرفة .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٤٣ .

فلقد نجح شاعرنا في استغلال الدلالة الموسيقية لتكرار حرف السين، وهو حرف مهموس مرقق، يفيد الاستقبال أو الحديث عن المستقبل المنتظر، فأنشأ الترديد الصوتي لحرف السين إيقاعا حزينا هادئا ينسجم مع حالة الخوف من المستقبل الذي يعد الأمل والرجاء المنشود الذي يبحث عنه الشاعر.

وقد أعطانا في هذه الأسطر الشعرية ما يعمق الإحساس بالخوف من المستقبل حين جعل شطآن البحر (بعيدة بعيدة) بما يحمله هذا التكرار أيضا من شدة العناء وبعد المستقبل، ويؤكد على هذا المعني من خلال مؤازرة تكرار لفظة (غائرة غائرة)، ليعطي الإيحاء ببعد المستقبل بُعْد الصدف عن الشاطئ الذي لم يستطع الغواص أن يصل إليه.

وعلى الرغم من هذا الإحساس فقد ترك لنا الشاعر بصيص أمل تمثل في قوله (حتى) التي تفيد انتهاء الغاية وجعلته يتمسك بالأمل، فبالعزم والإرادة ستكون النهاية المرجوة، وهي الوصول إلى الهدف المنشود.

وتستوقفنا ظاهرة تكرارية أخرى وهي تكرار حرف النداء " يا " للاستغاثة والاستصراخ وطلب النصر للقدس، فكرر الشاعر "يا" في قصيدة " يا قدس" كثيرا في قوله:

يا قدس يا محراب يا منبر يا نور يا إيمان يا عنبر

ويقول في نفس القصيدة:

يا قدس يا محراب يا مسجد يا درة الأكوان يا فرقد

ويقول أيضا:

يـا سـورة الأنفـال مـن لي بهـا قدسـية الآيـات تسـتنفر

....

يـا أفـرع الزيتـون في قدسـنا كـم طـاب في أفيائهـا الموعـد

....

يـا روضـة كانـت لنـا مرتعـا وكـوثرا مـن فيضـه نشـرب

....

يـا قـدس مهمـا باعـدوا بيننـا ففي غـد جيش الهـدى يزحـف

....

يـا قـدس إن طالـت بنـا فرقـة فسـيفنا يـا قـدس لـن يغمـدا

....

يا قدس يا صرح العلى شامخ شُـلَّت يمـين المـاكر الثَّعلُبـان

فهذا التكرار لحرف النداء مرة تلو مرة يذكر المتلقي بالمكانة الدينية لهذا المكان المقدس، فقد استخدم الشاعر هذا الحرف إحدى عشرة مرة في البيتين الأولين، ثم أخذ يعاود تكراره بين البيت والآخر ليكون فاصلة نغمية تحمل إيقاعات الإنشاد الإنشائي لأن " يا " حرف متحرك يليه حرف مد مما يتيح للمنشد أن يتحكم في زمن المد المتسق مع زمن السياق الشعري.

ومن الحروف التي كرره الشاعر أيضا حرف " الراء " في قوله[1] – من البسيط–:

أحبة القدس في قدس العلى فاستبشروا قد أتانا العلم والخبر

إن الأحبة في درب الجهاد سلاحهم في الحمى" المقلاع "

وأنهم سطروا في الساح ملحمة قد زاغ من هولها في الملتقى البصر

واليوم رعد وبرق لاح فانتظروا سيتبع البرق في أفق العلى مطر

فتكرار حرف الراء هنا يبعث الحركة التي تلائم حالة الطمأنينة والأمل في نصرة القدس والتي برزت في تلك الرسالة التي يوجهها الشاعر للمسلمين في كل مكان، وتكرار الراء أضفى على تلك الرسالة قوة وانسجاما وحيوية سيطرت على الإيقاع، لأن الجرس الموسيقي الناشئ من تكرار الراء الذي يتصف بأنه مكرر يعلو دون رتابة وبلا خفوت في توحد نغمي ينسجم مع المعنى.

ومن الملاحظ أن الشاعر زاوج بين هذا الحرف المتكرر وبين حرف الروي، وهذا التجانس الصوتي من شأنه أن يبعث في النفس ارتياحا ويمهد السمع لتلقي القافية وقبولها، " فالأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٤١٧ .

الألوان، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن، ويرى فيها المهارة والمقدرة الفنية"(١).

وهذه المزاوجة نجدها مرة أخري في قول الشاعر(٢):

كيف أنسل من إهابي ونفسي كيف تهفو للعيش من غير
أنت روحي يا قدس كيف الاقي بين قومي بغير روحي أنسي
لست أدري وكيف يزهو نهاري؟ أو أعيش الحياة من غير شمس

فقد زاوج الشاعر بين تكرار حرف السين الذي يحمل مشاعر الحزن والأسى لحال القدس وبين قافية السين المكسورة بما توحيه من حالة الانكسار المسيطرة على الشاعر، فكانت المزاوجة بين الحرف المكرر والقافية لتحدث ألوانا من المشاعر والأحاسيس المتعددة النغم المختلفة ألوانه.

٢- تكرار كلمة:

لما كانت اللغة أداة مهمة لنقل الشعور والتعبير عن التجربة الشعرية، أصبحت " تتسم بالسعة والمرونة التي تمكن الشاعر من استغلال كل طاقاتها الدلالية والنغمية، والألفاظ هي وسيلة التعبير اللغوي، ومن دلائل مرونة ألفاظ اللغة الشعرية قابليتها للاشتقاق والتكرار والترادف، وإجراء ألوان البديع اللفظي عليها، وهذه الأمور وثيقة الصلة بموسيقى اللفظ، فهي لون من ألوان التفنن في طرق ترديد الألفاظ في الكلام حتى يكون للأصوات موسيقى ونغم،

(١) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ص ٤٥ ط الأنجلو المصرية ط ٥ ١٩٨١ .
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢٩٩ .

ويعد الجناس من أكثر الألوان البديعية موسيقية، وهي تنبع من ترديد الأصوات المتماثلة مما يقوي رنين اللفظ ويقوي الجرس الموسيقي"(١).

وإدراك دلالات الألفاظ من خلال أصواتها وأجراسها أمر شائع عند العرب حتى ولو كانت المفردات من الدخيل، وقد أورد السيوطي في المزهر تحت عنوان " المناسبة بين اللفظ ومدلوله " أن هناك من العرب من كان يدرك تلك المناسبة، فقد سئل أحدهم – على سبيل المثال – عن معنى أذغاغ، قال: أجد فيه يبسا شديدا وأراه الحجر (٢).

ولم تغب هذه الظاهرة عن قدماء اللغويين والبلاغيين والنقاد العرب، إذ كان لديهم إحساس بإيقاع اللفظ وجرسه وموسيقاه، حتى إن نغمة اللفظ كانت تنقل إلى أذهانهم صورة من الصور التي تتعادل معها، مما دعاهم إلى التأكيد على الربط بين إيقاع اللفظ ومدلوله وصوره الإيحائية، فالألفاظ عندهم تجري مجرى الصور في البصر.

وهذا يعني أن تكرار الشاعر للفظ واحد في قصائد متعددة يحمل من الدلالات ما يوازي الإحساس الكامن في ذات الشاعر، ويدفعه ذلك إلى تأكيد هذا الإحساس وتسليط الأضواء عليه، فالتكرار " يسلط الضوء على نقطة

(١) مجلة الجامعة الإسلامية – غزة المجلد التاسع العدد الثاني مقال بعنوان " تشكيل البنية الإيقاعية في الشعر الفلسطيني المقاوم " د/ عبد الخالق محمد العف .

(٢) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية لسمير أبو حمدان ص ٢٥ ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ط١ سنة ١٩٩١م .

حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها "[1]، فتشكل في النهاية معلما بارزا من معالم البناء الشعري والإيقاعي، إذ هي لوازم موسيقية ونغمات أساسية تخلق جوا نغميا ممتعا.

وتمثل الكلمة مصدرا مهما من مصادر التكرار عند يوسف العظم، والتي تتشكل من صوت معزول أو جملة من الأصوات المركبة الموضوعة داخل البيت الشعري أو القصيدة بشكل أفقي أو رأسي، وهذه الأصوات تتوحد في بنائها وتأثيرها سواء كانت ذات صفة ثابتة كالأسماء أو ذات طبيعة متغيرة تفرضها طبائع السياق كالفعل، فجميعها تسعى لتؤدي وظيفة سياقية تفرضها طبيعة اللغة المستخدمة وإلا أصبح التكرار إعاقة ونمط لا يثير في السامع أو القارئ أي انفعال أو إثارة.

ومن الكلمات التي كثر تكرارها ودورانها في شعر المكان عند يوسف العظم كلمة القدس، كما في قوله[2] – من السريع –:

– يا قدس يا محراب يا منبر يا نور يا إيمان يا عنبر
– يا قدس يا محراب يا مسجد يا درة الأكوان يا فرقد
– يا قدس مهما باعدوا بيننا ففي غد جيش الهدى يزحف
– يا قدس إن طالت بنا فرقة فسيفنا يا قدس لن يغمدا
– يا قدس يا صرح العلى شامخ شُلَّت يمين الماكر الثُّعلُبان

(١) قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة ص ٢٤٢ ط دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٨٣م .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥ وما بعدها .

لقد كشف تكرار لفظ القدس في هذه الأبيات عن مكانة القدس العظيمة في نفس الشاعر وحبه الشديد لها، وإصرار أبناء الأمة الإسلامية على استرداده وتحريره مهما بلغت التضحيات، فالنصر لهذه المدينة آت وغن طال الزمن.

فتكرار لفظ القدس هنا يؤكد تمسك الشاعر بالهوية العربية والإسلامية، ويجسد العشق للأقصى، إضافة إلى التوقيع النغمي الجميل الذي أنشأه هذا التوالي الجميل الذي يحمل توقيعات نفسية ومعنوية تجسد العشق للقدس.

ويتكرر لفظ القدس مرة أخرى في قوله:

يا سماء القدس أمطريهم لهيبا

يا جبال القدس الشهيدة ميدي

لقد دل تكرار لفظ (القدس) في السطرين الشعريين السابقين على صمود هذه المدينة المباركة ومقاومتها لهذا المحتل الغاشم.

ويؤكد الشاعر على محبة القدس في نفوس المسلمين عن طريق التكرار، لما تحمله نفوسهم من البشرى بالنصر، كما كرر لفظ (خبر) ليؤكد صدق هذا الخبر، كما يكرر لفظ (أحبة) إشارة إلى أن المدافعين عن القدس هم الذين ينتمون إليه حبا وتقديسا له، فيحمونه بكل ما لديهم من أسلحة بسيطة وهي المقلاع والحجر حين يقول[1] – من البسيط –:

أحبة القدس في قدس العلى خبر فاستبشروا قد أتانا العلم والخبر

إن الأحبة في درب الجهاد مضوا سلاحهم في الحمى" المقلاع "والحجر

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٤١٧ . .

ويعود الشاعر ليكرر لفظ (أحب) ليدلل على أن حبه لا يقتصر على القدس وحدها وإنما يشمل البلدان العربية المدافعة عن هويتها كالجولان والأردن، فيقول[1] – من الوافر–:

أحبُّ القدس والجولان أهوى ثلج صنّين
أحبُّ الأردنَ المعطاءَ من كفّيه يسقيني
وأعشق أمة التوحيد والقرآنُ يهديني
وحبُّ الله والأوطان يجري في شراييني

والشاعر حين يعمد إلى التكرار في حديثه عن المدن والأماكن العربية إنما يكشف عن قيمة هذه المدن ومكانتها، فحين تحدث عن مدينة (حماة) نراه يكثر من تكرار ضمير المخاطب (أنتِ) في أبيات متتالية يكشف عن مكانتها ومكانة أهلها، فهي الشعاع وعنوان الجهاد، وسيف الحق، ففي توجيه الخطاب لها ليس لتفردها وإنما يتخذ شاعرنا منها ذاتا عامة تشمل جميع البلدان العربية فيقول [2]:

أنت فجر لغد مستبشر وشعاع من ضياء الحرم
أنت عنوان جهادك خطه شعبك الحرّ بأزكى قلمِ
أنت ترتيلة عزّ وهدى وشموخٍ وجهادٍ مُلهَمِ
أنت سيف الحق إذ تحمله راحة المؤمن كفُّ المسلم

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٢٢ .
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٣٢ .

أنت خفّاقٌ على هام العلى في يد الحر كريم الشيم
أنت لحن خالدٌ تعزفه راحة التاريخ عفُّ النَّغم
أنت بركان تلظَّى ناره يقذف الباغي بسود الحمم

وحين ينتقل العظم للحديث عن دمشق يقول[1] – من الطويل –:

عهدتك يا فيحاء نارا على العدا ونورا يضيء الدربَ والليل مظلم
عهدتك يا فيحاء سيفا قرابه يظل بشوقٍ للقاء فيُحرِمُ
عهدتك يا فيحاء حصنا منيعة جوانبُهُ ما باله يتهدَّمُ
عهدتك يا فيحاء جندا لراية يباهي بها في السَّاح زند ومعصمُ

فيعمد الشاعر إلى تكرار (عهدتك) ليضع في ذهن المتلقي صورة من صور كفاح المدن العربية ويكشف أن كونها ساحة لجند الحق وحصن منيع يعز على الباغين فلا يستطيعون النيل منها ليس أمرا وليد موقف عابر، وإنما أمر أصيل فيها، فهو يعهدها كذلك دوما، فالقوة والمنعة أمر طبعي فيها وفي شعبها.

والتشبث بالمكان المقدس عند العظم جعله يتشبث بالأرض كلها ؛ لن التمسك بها والحفاظ عليها جزء من الدين، ولذا كان للمكان قدسية خاصة في

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٣١ .

نفس الشاعر، فعبر عن حبه للأرض وتغني بها، فاستخدم بنية التكرار لتؤكد هذا الحب والتمسك بالأرض في قوله[1] – من الطويل –:

هي الأرض فاعلم أنها كنزك الذي بأغلى كنوز الكون والحق تزخر
هي الأرض مثوى للشهيد تضمه بكلِّ حنانٍ في ثراها وتفخر
هي الأرض منها نستمد سلاحنا وفي وجه اعداء الحياة يفجّر
هي الأرض ام أو عروس فحسبها بفيض دم الأحرار أضحت تُعطَّرُ

فعن طريق التكرار قوله (هي) يكشف عن مكانة الرض من كونها كنز ومثوى للشهيد، فهي بمنزلة الأم والعروس التي قاتل لأجلها الأبرار.

وتستوقفنا ظاهرة تكرارية أخرى وهي تكرار الاستفهام، فحالة القلق والحيرة التي سيطرت على الشاعر دفعته إلى تكرار اسم الاستفهام (أين) الذي يحمل أعباء الظرفية المكانية ليس عن مكان واحد بل عن كل شيء، فالسؤال عن الأرض له علاقة بالمكان الآمن الذي يبحث عنه الإنسان في ظل الشعور بالضياع الذي يشمل ضياعه وضياع الأمة وأمانيها ومبادئها، فيعمد إلى تكرار الاستفهام بـ (أين) بحثا عن الحب والصفاء في المكان والآمال التي يتعلق بها أملا في النصر فيقول[2] – من الرمل –:

أين قلبُ الروحِ في أعماقه سكن الوجد به واضطرما
أين أحلامُ الصبا أين المنى هل ترى طيفًا لها أو مَعْلما

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢٢٧ .
(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٢٩٥ .

أيــن دفء الحــب في أرجائــه ولهيـبُ الشـوق فيـه احتـدما
أيــن ألحــان الهــدى صــداحةً قد سمَت شدوًا وعفَّت نغما
أيــن قلــب الــبر في آفاقــه لِمَعــانٍ ســاميات صُــمَّمَا

وهكذا كان لتكرار الكلمة حضور بارز في شعر العظم عن المكان ليكشف من خلاله مكانة المكان وقدسيته، ويربط بينه وبين ما يحسه ويستشعره تجاه ما تناوله من أماكن.

٣- تكرار العبارة

ونقصد بـــ(تكرار الجملة) أن يكرر الشاعر الجملة في قصيدته تكراراً فنياً موحياً يؤدي دوراً لافتاً في إنتاج شعريتها، ويشكل هذا اللون ملمحا بارزا من ملامح الشعر العربي قديما وحديثا لما يؤديه من وظائف متعددة على مستوى المعنى والمبنى، فهو يسهم بشكل كبير في استبطان رؤيا الشاعر والإيحاء بها، وفي الوقت نفسه يعمل على تلاحم بنية النص وتماسكها.

فتكرار الجمل يعكس الأهمية التي يوليها المتكلم لمضمون تلــك الجمــل المكررة باعتبارها مفتاحا لفهم المضمون العام الذي يتوخاه المتكلم، إضافة إلى ما تحققه من توازن هندسي وعاطفي بين الكلام ومعناه.

ولقد برز تكرار العبارة في شعر يوسف العظم عن المكان بشكل واضح، فلما كانت للقدس مكانة وقدسية خاصة في النفوس لجأ الشاعر إلــى تكــرار عبارة كاملة تخص مضمونها الديني المقدس في مثل قوله[١]:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٥٨ .

إنما الأقصى عقيدة ووسام وقصيدة

إنما الأقصى عقيدة فافتدوا تلك العقيدة

ويقول كذلك في القصيدة ذاتها مكررا نفس العبارة (إنما الأقصى عقيـــدة) فيقول:

إنما الأقصى عقيدة في ذُرى العزِّ وطيدة

إنما الأقصى عقيدة أين من يحمي حدوده؟

إنما الأقصى عقيدة ليتني كنت شهيده؟[1]

ويكرر الشاعر العبارة مرة أخرى في قوله [2] – من الرمل –:

سائلوا الكفر الذي أنكرني ورماني بسلاح مجرم

يوم كان الذل في هاماته موطني كان جباه الأنجم

يوم كان الجهل في ساحاته كنت استلهم وحي القلم

يوم كان البرء من كفى له كنت لا أعرف طعم السقم

فلقد وظف الشاعر التكرار الوارد في الأبيات السابقة) يوم كان (في إبراز المفارقة التصويرية بين الماضي المجيد لهذه الأمة المباركة و الماضي المظلم لأمة الكفر، فهذه الأمة كانت عزيزة و كانت مناراً تشع بالنور، في حين كان الغرب في عصور ظلامهم.

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

ويقول أيضا[1] – من الرمل–:

رددوها دعوة في العالمين تملأ الآفاق حقاً ويقين
رددوها وارفعوا راياتها فبها عز الحمى دنيا ودين
رددوا الدعوة في ساح الجهاد واسمعوا الأقصى جراحاً ينادي
رددوها حرة مؤمنة في سهولي وجبالي ووهادي
رددوها بلسماً يشفي وابعثوها في الدنا ناراً ونورا
رددوها دعوة الحق الصراح ابعثوا أصداءها كل صباح

فالشاعر هنا من خلال تكراره لعبارة (رددوها) أبناء الأمة الإسلامية إلى التمسك بهذا المكان المقدس (الأقصى) وأن يكونوا دعاة لحمايته حتى يتحقق النصر، وينجلي الظلم، وتعود العزة والكرامة للأقصى ولهذه الأمة المباركة.

ويبث الشاعر شكواه على لسان المسجد الأقصى حين يرى تخاذل العرب والمسلمين، فيكرر عبارة (لا تسلموني)، فنلمح فيها أثر المرارة التي يعاني الشاعر منها وهو يشير إلى السجون والعذاب والجراح التي ألمت بالمسجد الأقصى فيقول[2] – من الكامل–:

لا تسلموني للسجون أو تحرقوني في الأتون

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٣٩ ، ٤٠ .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

لا تســـــلموني للعـــــذاب في غـــير معـــترك الحِـــراب

. . . .

لا تســـــلموني للجـــــراح في غـــير معـــترك الرمـــاح

لا تســـــلموني للظـــــلام أو ترخصـــــوني للئـــــام

لا تســـــلموني للقيـــــود أو ترهبـــــوني بالوعيـــــد

فالتكرار كشف الحالة النفسية التي يعاني منها الشاعر الذي يعـد معـادلا موضوعيا للأقصى ففي معاناة الشاعر معاناة للأقصى، وفـي بكائـه بكـاء للأقصى.

ومن خلال ذلك يتضح ارتكاز الشاعر على التكرارات المتعددة المتنوعة ما بين تكرار الحرف والكلمة والعبارة، وهي مزية أسلوبية تسـجل للشـاعر يوسف العظم، ففيه تأكيد لمواقفه، ومواصلة لتوصيل مضامين خطابه الفكري حول المكان بلغة شعرية عالية المستوى وأسلوب أدبي رفيع.

الخاتمة

مما لا شك فيه، أنّ الوصول إلى النص الشعري يتطلّب التمكن منه، وهذا التمكّن يكون بطرق متعددة، تختلف من حيث الهدف والأداء.

فشعرنا المعاصر على الخصوص، يحمل زخمًا جمًّا يجعله يفضي بقراءات متعددة، ومعان تختلف من قارئ لآخر حول النص الشعري ومكوناته وعناصره.

والمكان، من بين أهم العناصر التي دخلت في بناء النص الشعري فالشاعر من خلاله يضفي على نصه الألوان الجمالية، مستفيدًا من التجارب الشعرية المكانية العربية والغربية، بمختلف سياقاتها ورؤاها.

وقد كان هذا البحث **(المكان في شعر يوسف العظم)** إسهاما في إبراز النص المكانيّ الشعري عند يوسف العظم والذي وظّف المكان توظيفا فنيا بعيدا عن التوظيف الحرفي حيث أبرز مدى التواصل الشعري بين الشاعر والمكان.

ومن الملفت للانتباه أنّ المكان في النص الشعري عند يوسف العظم لم يكن مجرد أسماء يذكرها الشاعر فحسب، وإنما أحسن الشاعر في توظيف المكان إذ استوعب معنى التوظيف المكاني داخل النص، فجعل المكان جزءًا لا يتجزأ من بنية النص وماهيته، وذلك من خلال إعطائه أبعادًا متعددة، واحتمالات وضاءة لا تخرج عن دائرة النص بل تكون في مركز هذه الدائرة.

فالمكان في النص الشعري عند يوسف العظم أخذ أبعادا شتى : دينية ونفسية ووطنية وعربية، وذلك من خلال المحاور التي بني عليها تناوله

للمكان في نصه الشعري والتي دارت حول المكان المقدس، والمكان الطبيعي والمكان الوطن، كما لم ينسى شاعرنا أثر رحلاته وتنقلاته على شعره المكاني.

ومن هنا جاءت أنماط المكان عنده محملة بالكثير من الدلالات المنبعثة من رؤيته للمكان، وهدفه في هذا التوظيف الفني للمكان مستعينا بالأدوات الفنية التي تبرز هذا التوظيف من خلال المعجم الشعري النابض بالحركة والصورة الفنية التي تكشف أبعاد المكان ودلالاته، وكذا التكرار من حيث الحرف والكلمة والعبارة مما أعطى نصه المكاني بعدا موضوعيا وفنيا بالغ الأثر في نفس المتلقي.

ولقد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج هي:

١-بروز ظاهرة المكان في شعره بشكل واضح.

٢-اهتمامه بالمقدسات في شعره، وكان سباقا إلى تحديد عناصرها تحديدا دقيقا.

٣-أفاد الشاعر من التراث بشكل كبير في توظيفه للمكان في شعره، وتوظيف التراث عموما في شعره يحتاج لبحث مفرد.

٤-انتشار ظاهرة التكرار في شعره المكاني خاصة وفي شعره على وجه العموم، وهذا أيضا يحتاج إلى بحث مفرد لتعدد ألوان التكرار في شعره عامة ما بين الحرف والكلمة والعبارة واللازمة.

والله أسأل أن يكون عملي هذا خالصا لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير.

المصادر والمراجع

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية لسمير أبو حمدان ص ٢٥ ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ط١ سنة ١٩٩١م.

(٢) إضاءة النص: اعتدال عثمان، دار الحداثة، بيروت، سنة ١٩٨٨م.

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة – يوسف العظم ط دار الضياء – ردمك– ط أولى سنة ٢٠٠٣م.

(٤) الأعمال الكاملة لحسن الشرفي ط عبادي للدراسات والنشر–صنعاء.

(٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي، دار الكتب العلمية – بيروت – د. ت.

(٦) بناء الأسلوب في شعر الحداثة ــ د/محمد عبد المطلب ــ القاهرة ١٩٨٨.

(٧) جماليات الأسلوب والتلقي د/ موسى ربابعة ط مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع

(٨) جماليات المكان غاستون باشلار ترجمة غاليا هلسا ط وزارة الثقافة والإعلام – بغداد سنة ١٩٨٠م.

(٩) جماليات المكان في الشعر العباسي د/ حمادة تركي زعيتر، ط مؤسسة دار الرضوان للنشر والتوزيع – الأردن.

(١٠) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، صالح أبو أصبع ط١ ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت سنة ١٩٩٧م.

(١١) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط٣ ط المجمع العلمي العربي الإسلامي – دمشق سنة ١٩٦٩م.

(١٢) دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر: قادة عقاق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة ٢٠٠١م.

(١٣) ديوان البحتري تحقيق:حسن الصيرفي،ط،٣ دار المعارف – مصر – ١٣٩٨هـ – ١٩٧٧م.

(١٤) ديوان ابن حمدىس الصقلي ط دار صادر بيروت د. ت.

(١٥) ديوان رباعيات من فلسطين للشاعر يوسف العظم ط المكتب الإسلامي – بيروت –ط١ سنة ١٩٧٠م.

(١٦) ديوان الشوقيات، أحمد شوقي ط المكتبة التجارية الكبرى د.ت.

(١٧) ديوان علي بن الجهم علي بن الجهم، دار الآفاق الجديدة بيروت، د.ت ط٢.

(١٨) ديوان عنترة بن شداد ط دار الكتب الإسلامي – بيروت – سنة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

(١٩) ديوان مجنون ليلى قيس بن الملوح، تحقيق: عبد الستار فراج دار مصر للطباعة القاهرة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٧م.

(٢٠) ديوان الطغرائي تحقيق د/ علي جواد الطاهر، د/ يحي الجبوري ط منشورات وزارة الإعلام بغداد سنة ١٩٧٦م.

(٢١) شاعرية المكان جريدي سليم المنصوري ط مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر – جدة – سنة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

(٢٢) شرح المعلقات العشر للتبريزي شرح عبد السلام الحرتان دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٢٣) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د/ إبراهيم عبد الرحمن ط مكتبة الشباب – القاهرة سنة ١٩٧٩م.

(٢٤) الصورة بين البلاغة والنقد د/ أحمد بسام ساعي ط دار المنارة للطباعة – دمشق سنة ١٩٨٤م.

(٢٥) عنصر المكان في شعر محمد إبراهيم أبو سنة د/ مصطفى عبد الغني ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتابة الثقافة الجديدة عدد ٣٣.

(٢٦) فن الشعر د/ إحسان عباس ط دار صادر بيروت ط١ سنة ١٩٩٦م.

(٢٧) في نقد الشعر " الكلمة والمجهر " د/ أحمد درويش ط دار الشروق ط١ سنة ١٩٩٦م.

(٢٨) قضايا الشعر المعاصر نازك الملائكة ص ٢٤٢ ط دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٩٨٣م.

(٢٩) لسان العرب ابن منظور، ط دار صادر بيروت، ط٢ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

(٣٠) المعجم الوسيط ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣١) المكان في شعر شوقي د/ حسن عطية طاحون ط الأقصى للطباعة سنة ٢٠٠٩م.

(٣٢) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/ صابر عبد الدايم يونس ط الخانجي.

(٣٣) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ص ٤٥ ط الأنجلو المصرية ط ٥ ١٩٨١.

(٣٤) نظرية الأدب رينيه ويليك ترجمة حسام الخطيب ط المجلس الأعلى للفنون والآداب بالكويت سلسلة عالم المعرفة.

(٣٥) نفح الطيب للمقري تحقيق: د. إحسان عباس ط دمشق: د.ت.

(٣٦) نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ط دار الكتب العلمية – بيروت.

الدوريات:

(١) جريدة الجمهورية في ٢٠١٠/٩/٢٦م مقال بعنوان "جماليات المكان في شعر حسن الشرفي " للكاتب عبد الله زيد صلاح.

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية مجلد ٢١ – العدد الأول سنة ٢٠١٣م، القدس في ديوان (في رحاب الأقصى) دراسة تحليلية د/ ماجد محمد النعماني.

(٣) مجلة الجامعة الإسلامية – غزة المجلد التاسع العدد الثاني مقال بعنوان " تشكيل البنية الإيقاعية في الشعر الفلسطيني المقاوم " د/ عبد الخالق محمد العف.

(٤) مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية – مكة المكرمة العدد السابع عام ٢٠٠٢م ظاهرة التكرار في شعر أبي القاسم الشابي، زهير أحمد المنصور.

(٥) مجلة الفيصل، العدد ٢٨٦، (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، أحمد زياد محبك، مقالة جماليات المكان في الرواية.

(٦) مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، ج ٣٤، مج ٩، ديسمبر١٩٩٩.جماليات التشكيل المكاني في ديوان " البكاء بين يدي زرقاء اليمامة " لأمل دنقل، دراسة نصية: مراد عبد الرحمن مبروك.

(٧)، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات / سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد الخامس العدد الأول سنة ١٩٩٠، التكرار في الشعر الجاهلي د/ موسى ربابعة.

الرسائل:

(١) المكان في الشعر الجاهلي رسالة ماجستير مخطوطة – جامعة مؤتة – عام١٩٩٧م للباحثة أمل مفرج عابد.

(٢) المكان في شعر طاهر زمخشر رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية للباحثة سلمى بنت محمد بن عبد الله باحشوان.

(٣) يوسف العظم شاعرا رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة مؤتة – كلية الآداب للباحث محمد أحمد الحمايدة سنة ٢٠٠٢.